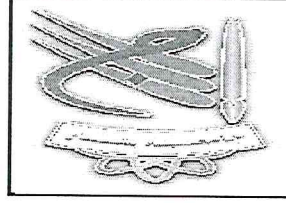


الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة طاهري محمد بشار



قسم العلوم الانسانية

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

سند بيداغوجي خاص بمقياس:

الحركة السياسية والفكرية في المغرب الأوسط خلال العصر الموحد

تخصص: تاريخ وحضارة المغرب الأوسط

مقدم لمستوى السنة الثانية ماستر

إعداد الدكتور: عبد الرحمن بلاغ

السنة الجامعية 2017-2018

المحاضرة الأولى:

الدعوة "التومرتية"

أولاً: مفهوم الدعوة

ثانياً: ظروف الدعوة التومرتية

ثالثاً: رحلة ابن تومرت:

رابعاً: لقاء ابن تومرت بعبد المؤمن بن علي الكومي

الدعوة "التومرتية"

أولاً: مفهوم الدعوة:

1- الدعوة لغة:

وهي مصدر دعا، جمع دَعَوَاتٍ ودَعَوَاتٍ، ودَعَوَةُ الرجل أي: بيني وبينه قدر ما بيني وبين الذي أدعوه، والدَّعْوَةُ: ما يدعى إليه من طعام أو شراب وكذلك الإِدْعَاءُ، ودعاء، ودعا إلى الأمر أي: حث على اعتقاده ونادى به¹. والدعاة قوم يدعون إلى بيعة هدى أو ضلالة، وأحدهم داعٍ ورجل داعية إذا كان يدعو الناس إلى بدعة أو دين، والرسول (ص) داعي الله تعالى، قال تعالى مخبراً عن الجن الذين استمعوا للقرآن "وولوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا أجيئوا داعي الله"، ويقال لكل من مات دُعي فأجاب.

وقد وردت كلمة "الدعوة" في القرآن الكريم بمعاني متعددة، مثل الطلب في قوله تعالى: (لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً)²، وبمعنى النداء: (يَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَادْعُوهُمْ فَلَمَّ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً)³، ومعنى السؤال على لسان بني إسرائيل: (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لُونُهَا، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لُونُهَا تَسُرُّ النَّاتِلِينَ)⁴، وفي معنى الدعاء: (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)⁵، وهذه المعاني وغيرها تصب في معنى واحداً هو معنى «الطلب».

2- الدعوة اصطلاحاً:

الدعوة⁶، في بلاد المغرب خلال العصر الوسيط، تتمثل في تلك المبادئ ذات التأصيل الديني والبعد السياسي، التي نادى بها أفراد أو مجموعات، لمواجهة أفكار أو فرقاً أو مذاهب، مثل الدعوة الخارجية والإسماعيلية الشيعية، أو لتصحیح وتعميق مبادئ الدين الإسلامي في مجموعة بشرية معينة، مثل دعوة عبد الله بن ياسين الجزولي، أو لتغيير منهج الاعتقاد، مثل دعوة محمد بن تومرت المصمودي.

نجد في هذا التشخيص، ارتباط وثيق بين المعنى الاصطلاحي للدعوة وواقع حالها في بلاد المغرب الإسلامي، في كونها نداء أو طلب إلى اعتناق مبادئ ومنهج معينة، تختلف وقد تناقض مع ما هو ممارس.

ثانياً: ظروف الدعوة التومرتية:

¹ - معجم المعاني الجامع، مادة: دعا.

² - الفرقان، الآية 14

³ - الكهف، الآية 52

⁴ - البقرة 69

⁵ - الأعراف، الآية 55

⁶ - حاولت أن ابتعد عن المفاهيم الاصطلاحية المتداولة عن الدعوة والتي كثيراً ما يربطها المهتمون بالدعوة إلى الله أو الدعوة الإسلامية.

إذا نظرنا إلى مطلع القرن السادس الهجري في بلاد المغرب نجده يحمل عدة سمات سياسية ودينية، منها الوحدة السياسية ممثلة في الدولة المرابطية (448هـ-541هـ)، بينما في الجانب الديني نجدا حضورا قويا للمذهب المالكي، المذهب الرسمي للمرابطين، إلى جانب دخول علومًا دينية إلى بلاد المغرب تبناها بعض الفقهاء وعارضها فقهاء البلاط المرابطي، فكان ذلك مدخلا لانتقادهم بل والظعن في عقيدتهم، مثل ما فعل ابن تومرت.

المطلع على دعوة ابن تومرت، من خلال المصادر التي أغلبها موحدية، يستشف ذلك القبول والانتشار الواسع لـ"مذهبه"، في بلاد المغرب، فهل يرجع ذلك إلى عامل "العصية" حسب التعبير الخلدوني؟ أم إلى إيجابية الطرح التومرتي وتجاوبه مع الذهنية المغاربية؟ أو هي بكل بساطة "الدورة الحضارية" وحالة التجديد التاريخي في بلاد المغرب؟

بعض الدراسات التاريخية التي تناولت ظروف نشأة الدولة الموحدية، ترمي بطروحاتها في اتجاه ضعف الدولة المرابطية منذ عهد علي بن يوسف بن تاشفين (500هـ-537هـ / 1107-1143م)، وهذا - في اعتقادي - من أسهل التفسيرات لتبرير انهيار دولة وصعود أخرى، مثل ما أورده الدكتور عباس الجراري في قوله عن "الثورة الموحدية" أن: (ارهاصات الثورة الموحدية ومقدماتها كامنة في الإنحلال الذي أصاب دولة المرابطين في عنفوان شبابها)¹، وإن كنا لا ننكر دور هذا العامل، فلا بد أن نبحت في الظروف التي جعلت من ابن تومرت ودعوته، مركز اهتمام السلطة المرابطية ابتداء من سنة 515هـ/1121م من جهة، ومبعث احتضان من المصامدة من جهة ثانية.

في البداية سجل ابن تومرت بعد عودته من المشرق حضورا ملفتا في بلاط المرابطين، من خلال المناظرات التي كان طرفا فاعلا فيها، وهي روايات أوردها البيدق في كتابه، حيث كان يحرص على لقاء العمال والولاة²، سيما في المناطق التي نزل بها، فكانت له حوارات معهم تناولت سياستهم للرعية، وسيرتهم فيهم، ووصل صيته إلى مسامع أمير المرابطين علي بن يوسف، الذي كان له معه لقاء مشهودا بمسجد صومعة الطوب بمراكش، حيث دخل مع الفقهاء بالمذاكرة، حتى قهرهم القهر الكلي، وما كان له مع الفقهاء الذين جمعهم علي بن يوسف بمسجد عرفة فذاكرهم "المعصوم" وأخفهم³. هناك إجماع في الروايات التاريخية على التفوق العلمي لابن تومرت على فقهاء الدولة المرابطية، ويفهم ذلك من خلال تمكنه من علوم الاعتقاد التي تلقاها في المشرق، وجعل أغلب فقهاء البلاط المرابطي لها.

كان لهذه الروح النقدية عند ابن تومرت، وتشعبه بالعلوم الشرعية القدرة على إخماد فقهاء المرابطين، وتطاوله على الملمثين في حضور أمير المسلمين بنعته إياهم بالجواري المنقبات، فضلا عن تسابق الطلاب لمجالسه، والتفاف العامة حوله، مما جعل ثقة أمير المسلمين الوزير مالك بن وهيب الإشبيلي يصرح بقوله: (هذا هو صاحب

¹ - عباس الجراري، الموحدون ثورة سياسية ومذهبية، مقال: مجلة المناهل العدد 01، نوفمبر 1974.

² - البيدق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1971، ص 21.

³ - المصدر نفسه، ص 27.

الدرهم المرکن، اجعل عليه كبلًا، كي لا تسمع له طبلاً¹. بل يشير صاحب المعجب أن مالك بن وهيب لما سمع كلام ابن تومرت (استشعر نفسه وذكاء خاطره واتساع عباراته، فأشار على أمير المسلمين بقتله)². إلا أن أمير المسلمين علي بن يوسف كان يستشعر في نفسه القوة والأنفة، فلم يأبه بتلك المحاولات.

إن احتضان المصامدة لدعوة ابن تومرت، يدخل في سياق النصرة القبلية، أو ما عبر عنه ابن خلدون بـ "العصية القبلية"، فقبيلة ابن تومرت عُرفت قبل قيام دولة المرابطين بقوة الشكيمة والدهاء في بلاد السوس³. إن الظهور التاريخي للمصامدة، يعود إلى بروز المهدي بدعوته، فلبسوا صبغتها وتضاعفت قوة عصبيتهم، كما كانت المنافسة قوية بين صنهاجة الصحراوية والمصامدة الجبلية على زعامة بلاد المغرب، فأمنت به واحتضنته، ودافعت عنه أولاً قبل مذهبه، فزادت الدعوة الدينية التومرتية قوة إلى قوتها العصبية.

إذا عدنا إلى بدايات المرابطين نجدهم توجهوا صوب الشمال ودخلت جيوشهم سبجلماسة ودرعة بقيادة عبد الله بن ياسين وأبي بكر بن عمر عام 447هـ / 1055م، ثم تقدموا صوب بلاد المصامدة بقصد أغمات، فدخلت في طاعته وريكة وهيلانة وهزميرة، وهنا نجد قضيتين تاريخيتين:

أولاً لماذا لم يذكر صاحب "الحلل" قبيلة هرغة وهي القبيل الذي ينتمي إليه ابن تومرت، من ضمن القبائل التي خضعت للمرابطين في البداية؟ والثانية لماذا استقر قادة المرابطين بأغمات؟

قد نجد الجواب عند ابن خلدون، حينما أشار إلى عائلة ابن تومرت بقوله انهم كانوا: (أهل نسك ورباط، وشب محمد هذا قارئاً محباً للعلم، وكان يسمى أسافو، ومعناه الضياء لكثرة ما كان يسرج القناديل بالمساجد لملازمتها)⁴، مما يعني أن هرغة قبيلة ذات سيادة علمية بين المصامدة، أما استقرار المرابطين بأغمات، فيرجع إلى الترحيب الذي وجده أبا بكر بن عمر اللمتوني من أشياخ المصامدة، وأذعنوا له بالطاعة، ودخل مدينة أغمات، واستوطنها مع إمامه الشيخ ابو محمد عبد الله بن ياسين⁵.

يظهر من الرواية أن هرغة المصمودية كانت معارضة للوجود المرابطي، سيما وأن حضورها العلمي والديني دفعها إلى عدم الرضوخ، حتى وإن أبدى غالبية شيوخ المصامدة ذلك الموقف، سعياً منهم إلى حقن الدماء أولاً، ثم احتضان المدّ الصنهاجي العسكري، -أملاً في البحث عن دور في المرحلة المقبلة- الذي سيكون له دوراً كبيراً ببلاد المغرب الأقصى الذي كان يشكو في تلك المرحلة من التشرذم السياسي.

¹ - نفسه، ص 27.

² - عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرحه واعتنى به د. صلاح الدين الهوارى، المكتبة العصرية صيدا بيروت، ط1، ص 140.

³ - ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع 2000، 6 / 300

⁴ - ابن خلدون، مصدر سابق، 301/6

⁵ - يبدو أن هناك علاقة ما بين عبد الله بن ياسين وأغمات، لأن هذا الأخير حينما رجع من رحلته لطلب العلم في الأندلس استقر بين المصامدة، ولعل المكان الذي استقر به هو "أغمات"، قبل تنقله إلى الصحراء.

لقد تم تأكيد هذا التوجه بعد اختيار عاصمة الدولة المرابطية بفحص مراكش القريب من بلاد المصامدة، ولذلك يقول ابن خلدون (لم يزل أمر هؤلاء المصامدة بجبال درن عظيماً... إلى أن أظلمت دولة لمتونة فكان أمرهم فيها مستفحلاً، وشأنهم على أهل السلطان والدولة ممها، حتى لما اختطوا مدينة مراكش لنزلهم جوار مواطنهم من درن ليميزوا عمن سواهم ويدلوا من صعابهم، وفي عنفوان تلك الدولة على عهد علي بن يوسف، منها نجمة إمامهم العالم الشهير محمد بن تومرت)¹. مما يبرر أن مصمودة اندفعت نحو الحراك التومرتي بقوة، لاعتبارات عصبية من جهة ورغبتها في القيام بدور أكبر في المرحلة المقبلة من تاريخ بلاد المغرب.

من هنا نستشف أن قبيلة مصمودة اجتمع فيها العلم والانخراط في القوى المتصاعدة ببلاد المغرب، لتحظى بالنفوذ والتميز على القبائل المجاورة لها في المكان، وقد تتخذ ذلك مطية للانقلاب على تلك القوى، ولا نستبعد ذلك، سيما وأن أهل السوس عموماً (يتطلعون إلى عالم من المخفيات والمغيبات، يفسرون على أساسه كثيراً من الظواهر المادية لحياتهم والأحداث التي تجري بينهم، وقد عرفوا لذلك بتعاطيهم للعرافة والتنجيم، وادعائهم التصرف في القوى الخفية والقدرة على كشف الكنوز)²، ومن شأن هذا أن يجدوا في دعوة ابن تومرت تحقيقاً لمآربهم.

لم نثر على دليل يبرز رغبة المصامدة في الثورة قبل ظهور المهدي ابن تومرت، لأن الظهور التاريخي للمصامدة يعود إلى بروز المهدي بدعوته، فلبسوا صبغتها وتضاعفت قوة عصبيتهم له، لدرجة أن لو امر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر إلى لك من غير تردد، وهذا يعود إلى طباعهم التي تتسم بعدم التورع في سفك الدماء وهذا أمر جبلت عليه فطرتهم واقتضاه ميل إقليهم.

ثالثاً: رحلة ابن تومرت:

لم يكن ابن تومرت وحيد عصره في الرحلة من بلاد المغرب إلى الأندلس ثم المشرق، فكثير من أقرانه رحلوا عن بلاد المغرب باتجاه المشرق، لكن لم يكن لهم ذلك التأثير الذي أحدثه ابن تومرت في تاريخ بلاد المغرب الإسلامي، فهل للرجل نبوغ وطموح سياسي لم يحض به معاصريه؟ أم أن الظروف ساقته ليكون "المغيّر" السياسي والديني في بلاد المغرب؟.

تأهب ابن تومرت وهو في مقتبل عمره للرحيل عن بلاد المغرب كما يذكر الزركلي بأنه كان ابن ثماني عشرة سنة³، ولم تذكر لنا كتب التاريخ عن دوافع الرحلة، إلا رغبته في طلب العلم⁴ كباقي أقرانه، ولم تذكر لنا أنه كان ناقماً على المرابطين قبل رحلته، وإنما كان من رواد مسجد قبيلته، كما أن بلاد المغرب خلال مطلع القرن 6هـ، كانت

¹ - ابن خلدون، مصدر سابق، 6 / 300 301.
² عبد المجيد النجار، تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، الطبعة الثانية 1995، ص 36.

³ - مع اختلاف المصادر في تاريخ ولادته. في البيان المغرب، الإمام ولد سنة 491هـ وقال ابن خلكان 484هـ، وقال ابن الخطيب 486هـ، وقال الغرناطي 471هـ، وقرأ في قرطبة على يد ابن حمدين، تاريخ الدولتين، ص 04.

⁴ - ابن القطان أبو محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد المالك الكتامي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من اخبار الزمان، درسه وقدم له وحققه محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي (ب ت)، ص 61.

أحسن حالاً على الأقل سياسياً عن بلاد المشرق، لذلك نتساءل هل العلوم الدينية المتنوعة التي تشربها في المشرق كانت هي الباعث على هذه النقمة؟ أم أن الطموح السياسي كان الفاعل الأول في تغييره الثوري تجاه المرابطين؟

غادر ابن تومرت "المحب للعلم" قبيلته هرغة صاحبة السيادة العلمية بين المصامدة، متوجهاً إلى الأندلس دخل قرطبة وجلس بين يدي القاضي ابن حمدين ونزل بالمرية، ويبدو أنه استعجل المسير إلى المشرق، لأنه لم يمكث كثيراً بالأندلس¹، وإلا كيف نفسر عدم ملاقاته لابن رشد الجد أبي الوليد (ت 450هـ - 520هـ / 1058 - 1126م) قاضي الجماعة بقرطبة، الذي فاق أهل عصره في الفقه والأصول، إضافة إلى القاضي عياض اليحصبي السبتي ت 544هـ / 1149م، إمام أهل الحديث في عصره وتولى قضاء غرناطة.

بينما ابن تومرت في طريقه إلى المشرق، نزل بالمهدية حيث جلس للإقراء على يد الإمام المازري، ثم أبحر إلى الإسكندرية وأخذ عن الإمام أبي بكر الطرطوشي (ت 521هـ / 1127م)² المتميزاً في الفقه والمهتم بالسياسة الشرعية، حيث ألف فيها كتاب "سراج الملوك"، ويبدل كتابه "الحوادث والبدع" أنه كان مدافعاً عن السنة ومحارباً للبدع، ولم تكن تلك إلا محطات توصله إلى مبتغاه وهو الحجاز وزيارة الحرمين³، والجلوس عند مشايخ العصر، سيما في بغداد التي كانت في تلك الفترة غنية ببحيرة العلماء، كما وصفها ابن العربي لما نزل المدينة عام 486هـ بقوله: (فألفت بها من رؤساء العلم ورؤوسه، أشياخ الملة وأخبارها ما يملأ الخافقين، فقلت هذه ضالتي التي كنت أنشد)⁴

المصادر التي تناولت رحلة ابن تومرت لم تشر إلى رفقائه في رحلة الذهاب⁵، عدا ذلك الشخص الذي أبلغ ابن تومرت بما يقول عنه الإمام الغزالي⁶. وقد مكث ابن تومرت بالحجاز والعراق حوالي عشر سنوات، كانت بداية التحول في تفكيره، بسبب ما تشربه من علوم عقلية ونقلية وعلم الكلام وعقائد الأشاعرة والمعتزلة وغيرها. وفي ذلك لا نوافق صاحب "نظم الجمان" في رؤيته الرامية إلى ربط عزم ابن تومرت على إسقاط حكم المرابطين، بسبب دعاء الشيخ أبو حامد الغزالي عليهم كما يزعم⁷، في قوله: (كان إحراق هؤلاء الجهلة لهذا الكتاب العظيم الذي ما ألف مثله سبباً لزوال ملكهم... على يد هذا الأمير العزيز القائم بالحق المظهر للسنة المحيى للعلم)⁸.

¹ - على الأقل المصادر لم تذكر ذلك.

² - نشير أنه أثناء عودته من الحجاز عاد ابن تومرت لمجلس شيوخه الطرطوشي.

³ - ابن خلدون، ج 6 / 226.

⁴ - أبو بكر بن العربي، العواصم من القواصم، تحقيق عمار طالبي، الشركة التونسية للنشر والتوزيع، الجزائر 1974، ص 72.

⁵ - يشير ابن القطان في قوله إلى أن جماعة بايعته بيعة سر ولا ندري هل رحلوا معه أم بقوا بالمغرب؟ (كان عام واحد وخمسمائة، عاهده فيها أهل التحقيق من العارفين به... وبايعوه بيعة سرا، وإن هذا عن حديث أثر فيه ووعده نبوي كريم)، نظم الجمان، ص 62.

⁶ - ابن أبي الزرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، صور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص 172. أشارت إليه عرضاً ولم تذكر اسمه.

⁷ - ابن القطان، نظم الجمان، الرواية مبسطة فيه، ينظر: من ص ص 72 73.

⁸ - نفسه، ص 71.

إن الفترة التي مكثها ابن تومرت بالمشرق كانت تختلف سياسيا وفكريا عن بلاد المغرب، ففي الوقت الذي عرفت بلاد المشرق عودة قوية للمذهب المالكي عن طريق عدد من العلماء، في وقت شهدت حالة من الفتور السياسي وتغلب الصليبيين على الشام، بينما عرفت بلاد المغرب أزهى فترات الحضارية، حيث نشطت الحياة العلمية¹ عموما مثل الأدب الذي أضحت له بعض المجالس الشعرية التي (كانت هذه الحرة حواء أدبية شاعرة جليلة ماهرة... بمجلس الكتبة والشعراء، كانت تحاضرهم فيه وكانت ذات نباهة وخطر)²، وحرص أمير المسلمين على إقامة العدل، مثلا لما بلغه تظلم أهل فاس من قاضيه ابن الملجوم كتب إليهم يعلن عزله (وقد أنهى إلينا وتحقق لدينا أن الجهول ابن الملجوم أحمل بأحكام القضاء... فقد ولينا خطة العلوم ونبذناه بالعراء وهو مذموم)³، كما تحرك أمير المسلمين من مراكش إلى الأندلس برسم الجهاد عام 503هـ / 1110م، وكان قبل هذه السنة انتصار المرابطين في موقعة إقليش على شائجة بن أدفونش.

إن إجماع فقهاء قرطبة وقاضيا علي بن حمدين⁴، على إحراق كتاب "إحياء علوم الدين" لآبي حامد الغزالي وبمباركة من علي بن يوسف، يعبر بصدق على التباين بين المشرق والمغرب في المنهج والفكر، فتأليف كتاب الإحياء بالمشرق ورواجه فيه يعطي إشارة على الحرية الفكرية التي كانت سائدة فيه، في حين أن فقهاء المرابطين شددوا في التمسك بمذهب الإمام مالك وما اتفق عليه السلف الصالح من الأمة.

هذا يرجع في نظرنا إلى بداية الدعوة المرابطية بقيادة عبد الله بن ياسين الجزولي ومجي بن إبراهيم الجدالي، اللذين تبنا المذهب المالكي ومسايرتها لعموم ما كان يطرح في حواضر العالم الاسلامي خلال النصف الأول من القرن 5هـ/11م، لمجابهة الفكر الشيعي والوثني والحلي المنتشر في بعض مناطق مصمودة وبرغواطة، كما أن حرص أمراء الدولة على الحفاظ على وحدة بلاد المغرب الاسلامي بالحفاظ على الوحدة المذهبية، لأن السماح بتداول العلوم العقلية، قد يؤدي إلى تفكك هذه الوحدة، سيما وأن المرابطين كانوا في أمس الحاجة إليها.

إن الفترة التي غاب فيها ابن تومرت عن قبيلته هرغة طويلة قد تصل إلى أربعة عشر عاما⁵ (501-514هـ/ 1108-1120م)، مكنته من الاطلاع عن كتب على أحوال العالم الاسلامي من جهة، وأن ينهل من عند رؤساء العلم وشيوخ الملة، أهلته لتكوين شخصية فذة، فضلا عما ورثه عن قومه بمعرفته "بخط الرمل". هؤلاء العلماء الذين

¹ - مع مراعاة الفارق بين المشرق وبلاد المغرب.

² - ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق الأساتذة: محمد إبراهيم الكتاني، محمد زنيبر، محمد بن تاويت، عبد القادر زمانة، دار الغرب الاسلامي، بيروت، طبعة الأولى 1985، ج4/56/57. وهذا خلاف ما ذهب إليه بعض المستشرقين بالحكم على عصر المرابطين بالجمود وقلة العلوم، أمثال دوزي وأشباه

³ - نفسه، ج4/92.

⁴ - هو أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد العزيز بن حمدين التغلبي، قاضي الجماعة بقرطبة ولد عام 439هـ، وتولى القضاء 490هـ، وتوفي 508هـ. ابن بشكوال: الصلة ترجمة 1254.

⁵ - ابن القطان، نظم الجمان، ص 62. لكنه يشير إلى دخوله بجاية سنة 511هـ، بمعنى أنه مكث بالمشرق حوالي عشر سنوات.

تدرس على أيديهم، يشكلون في تلك المرحلة مدار الفقه والأصول والحديث، وفي ذلك يقول ابن خلدون (ودخل العراق، ولقي جلة العلماء يومئذ وفحول النظر، وأفاد علما واسعا)¹، وهم على التوالي:

أبو الحسن علي بن محمد الملقب بعماد الدين، المعروف بالكيا الهراسي (ت 504هـ/1110م) كان عالما في الفقه والأصول والخلافات والتفسير، وله في ذلك كتاب "أحكام القرآن".

أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر الشاشي (ت 508هـ/1113م)، كان عالما في أصول الدين وأصول الفقه، كما كان رأس الشافعية في العراق، وألف في المذهب كتابه الشهير "المستظهر". كما سمع الحديث عن المبارك بن عبد الجبار بن أحمد الأزدي البغدادي، الصيرفي المعروف بابن الطيوري (ت 500هـ/1107م) ونظرائه من المحدثين.

أما لقائه وجلوسه للعالم أبي حامد الغزالي، فقد كانت فيه الرؤى شطط²، فهناك من يثبت اللقاء وهناك من يفنده، ومن أهم المصادر التي تثبت اللقاء، ابن القطان في "نظم الحمان" وابن صاحب الصلاة في كتابه "المن بالإمامة"، مع اختلاف بسيط في الراوي فابن القطان يسمي الحاج الصالح، وابن صاحب الصلاة يسمي عبد الله بن عبد الرحمن العراقي³، لكن الأهم عندنا ليس اللقاء من عدمه، وإنما ما يحصل من اللقاء من فائدة علمية ترتجي، والواضح ابن ابن تومرت تأثر بفكر الغزالي ومنهجه حتى وإن لم يلتق معه، سيما ما يتعلق بموقف الغزالي من التقليد وعلم الكلام والتصوف.

يؤكد ابن أبي الزرع، أن ابن تومرت لازم الغزالي ثلاث سنين، وينفرد هو الآخر برواية استشرافية مفادها تأكيد الغزالي على رئاسة ابن تومرت لبلاد المغرب، بل ويزعم أن ذلك عنده في "كتاب"، فقد قال: (لا بد لهذا البربري من دولة ... وردت بذلك الأخبار ودلت عليه العلامات والآثار، فنقل إليه الخبر بعض الأصحاب وأخبره أن ذلك عند الشيخ في كتاب، فلم يزل يجتهد في خدمة الشيخ ويتقرب إليه، حتى أطلعه على العلم الذي عنده فيه)⁴. لكن نعتقد أن الإمام الغزالي بريء من تلك الطلاسم، ولو كان ذلك صحيحا، لماذا يتأخر ابن تومرت كل تلك المدة بالمشرق ليرجع إلى بلاد المغرب؟.

لا نستبعد أن يكون ابن تومرت في الفترة التي قضاها بالمشرق قد اطلع على أخبار الدعوات السرية، وهو ما ذهب إليه الباحث عبد الكريم غلاب، حيث تنبه إلى مناهجها في التمكين للدعوة، كالحفاج والفاطميين، وفي

¹ ابن خلدون، مصدر سابق، 6،/ 301
² من المؤرخين الذين يثبتون اللقاء: ابن خلكان، الوفيات: ابن أبي الزرع، روض القرطاس، السبكي، طبقات الشافعية. ومن المحدثين، كنون، النبوغ المغربي، المنوني، العلوم والآداب والفنون. ومن النافين له: ابن الأثير، الكامل، ابن غلبون، التذكار، وحديثا: قول زهير، ابن تومرت والمذاهب الإسلامية بالمغرب، عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين، نقلا عن تجربة الإصلاح، عبد المجيد النجار، ص 60.
³ ابن القطان، مصدر سابق، ص 72. الحلل الموشية، مصدر سابق، ص 76.
⁴ ابن أبي الزرع، مصدر سابق، ص 172.

تكوين وتقسيم الأتباع إلى مجموعات حسب إخلاصهم للمذهب وقدرتهم على الاهتداء به والدعوة له¹، ورأى أن المدخل الأساسي لذلك هو "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر".

إن قرار ابن تومرت العودة إلى وطنه لم يكن صدفة، وإنما يرجع إلى حالة "الفيض" التي أضحى عليها، حيث حفظ كثيرا من أحاديث النبي (ص)، ونبغ في علم الأصول والاعتقادات، كما أن التحاق والده به ووصوله لبعجة²، يدل على الشوق والحنين الذي تكبدته أسرته في ظل غيابه عنهم، ولا نستبعد في هذا الإطار مناقشة والده له كم من مرة بالقول مع ركب الحاج.

في نظرنا يمثل التهديد الصليبي بقطع الطريق البري بين مصر والشام والحجاز، وتداول الخبر بين الناس، عاملا مهما في قرار ابن تومرت بالرجعة، حيث شهدت سنة 510هـ/1116م حملة صليبية بقيادة ملك بيت المقدس بلدوين الأول على خليج العقبة، وبنى بها قلعة في جزيرة فرعون قبالة ايلة³، وبذلك تمكن الصيبيون من الاشراف على شبه جزيرة سيناء تمهيدا لإكتساحها.

دخل ابن تومرت مصر بمعية عدد من مرافقيه، ونزل بالإسكندرية رغبة منه في الاستزادة من علم الإمام الطرطوشي، إلا أن اندفاعه في تغيير المنكر، جلب عليه نقمة العامة والغوغاء، حتى حالت بينه وبين حضور مجلس شيخه، إذ سأله شيخه يوما عن سبب غيبته عن مجلسه (فعرفه بشأن أولئك الغوغاء، وأنه يريد الإياب إلى المغرب، فودعه... وانصرف)⁴. بينما يورد صاحب المعجب أن والي الإسكندرية نفاه عن المدينة⁵ بعد أن ترك حوالي خمس عشرة رجلا من أتباعه⁶.

تعرض ابن تومرت في رحلته البحرية من الإسكندرية إلى ميناء المهديّة بتونس لمصاعب حمة كادت أن تنهي حياته، ومن ذلك ما أوردته المصادر في محاولة أهل المركب التخلص منه بإلقائه في البحر، لما لم ينته عن كثرة مناصحته إياهم، إلا أن شعورهم بالخطر وتقلب البحر عليهم، جعلهم يعيدونه إلى المركب، مع الاتقياد إليه لما رأوه من تدين الرجل وإخلاصه في نصحهم.

بدخول ابن تومرت بلاد المغرب، يظهر لنا تحول في منهج دعوته، وذلك لاصطدامه بولاة المرابطين، وقد يرجع ذلك إلى تصعيد ابن تومرت في دعوته لإقامة المعروف وإماتة المنكر، مما جعل رجال الدولة المرابطية يأخذون

¹ - عبد الكريم غلاب، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي 61/2 نقلًا المؤثرات الفكرية في المنهج... ص10

² - ابن القطان، مصدر سابق، ص 88.

³ - إبراهيم حسن سعيد، البحرية في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف 1983، ص 188.

⁴ - ابن القطان، المصدر السابق، ص 91.

⁵ - عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، ص 138. يذكر أن ابن تومرت توجه من الإسكندرية إلى ميناء بجاية. ولم يذكر توجهه إلى المهديّة وتونس وقسنطينة.

⁶ - البيهقي أبو بكر بن علي الصنهاجي، المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1971، ص 28.

أمره بحساسية، سيما مع التناف العامة والطلاب حوله، لذلك سنى كل والى يبعده عن عاصمة ولايته، حتى لا يؤلب الناس ضدّهم.

لم يكن ابن تومرت يكثر للتهديدات والأخطار في سبيل إحياء المعروف وإماتة المنكر، فنذ نزوله بالمهدية كان ذلك سبيله وأعجب به سلطانها يحيى بن تميم بن المعز بن باديس نظرا لسمته وكلامه¹، مع اظهاره للزهد والتشف، فجعل الناس يجتمعون حوله، سيما عندما أظهر تفوقه العلمي على فقهاء تونس "المنستير" وتويخه لهم على عدم فهمهم للسنة²، عندما أجموا عن أداء صلاة الجنازة على يهودي شهد له بالإسلام والإيمان.

خرج ابن تومرت من تونس باتجاه الغرب برفقة أربعة من أتباعه³، حتى نزل عند الفقيه عبد الرحمن الميلي ويحيى بن القاسم وعبد العزيز بن محمد ببلاد قسنطينة، وقد أنكر على قاضيا قاسم بن عبد الرحمن الأخذ بعقاب بدني مقام الحدّ شرعي كأن يضرب السارق بدل قطع يده. ثم دخل بجاية⁴ ونزل بمسجدها "الريحانة" وكان خلال مكوثه بها يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويعلم العلم حتى أتاه من الفقهاء محرز وإبراهيم الزيدوي، إبراهيم بن محمد الميلي، يوسف بن الجزيري الجراوي وعبد الرحمن بن الحاج الصنهاجي القاضي⁵، رأى ابن تومرت أن يخرج من المدينة استجابة لنصيحة ابن العزيز، ونزل بأحوازها بمكان يقال له ملالة (تاملالت)⁶، وأمام اصرار أهل بجاية على بقاء ابن تومرت بينهم بنو له مسجدا عند دار أبا يرزيجين بن عمر المدعو عبد الواحد المشرقي، وكلما سنحت له الفرصة ينزل مدينة بجاية يقوم بالحسبة.

رابعا: لقاء ابن تومرت بعبد المؤمن بن علي الكومي

اختلفت الروايات التاريخية في كيفية لقاء ابن تومرت بعبد المؤمن، والمكان الذي حصل فيه اللقاء، فعبد الواحد المراكشي لوحده يسرد روايتين تحمل مكانين مختلفين للقاء، واحدة يقول انه سمعها من (طرق صحاح) أنه لقيه بملاة على فراسخ من بجاية، وهي نفس الرواية التي أوردها البيدق صاحب ابن تومرت، ومن هذا المكان صحبه عبد المؤمن وعبد الواحد المشرقي.

الرواية الثانية بدأها بصيغة (قيل) أنه لقيه بفنزارة من بلاد متيجة، وعبد المؤمن حينها يعلم صبيان القرية، ونفس المكان يذكره البيدق، لكن بصيغة مختلفة كون عبد المؤمن وعمه "يعلو" قصدوا كمحطة في طريقهم لبجاية. بينما ابن القطان يرى أن عبد المؤمن قد سمع عن ابن تومرت من طرف شيخه عبد الواحد بن عمر التونسي بتلمسان،

¹ - نهاية الإرب 135/24.

² - البيدق، أخبار المهدي بن تومرت، ص 11.

³ - وهم: ابن تومرت، يوسف الدكالي، الحاج عبد الرحمن، أبو بكر بن علي الصنهاجي، ينظر: البيدق، أخبار المهدي، ص 12.

⁴ - حاكمها آنذاك العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد الصنهاجي.

⁵ - البيدق، نفس المصدر، ص 13.

⁶ - نفسه، ص 13. وعند عبد الواحد المراكشي (أمره صاحب بجاية بالخروج عنها حين خاف عاديته) المعجب، ص 138.

فلما مات هذا الأخير انتدب طلبة تلمسان عبد المؤمن لاستخدام ابن تومرت¹. لكن ما دام عبد المؤمن ارتحل من تلمسان، فالمرجح أنه نزل ببلاد متيجة ثم قصد ملالة من بلاد بجاية بالمغرب الأوسط.

أما الكيفية التي تم بها اللقاء فهي مختلفة، فعبد الواحد المراكشي في إحداها يكرر رواية البيدق، من أن عبد المؤمن بمعية عمه كان قاصدا المشرق لطلب العلم، فقال له: (إن العلم الذي تريد اقتباسه بالمشرق قد وجدته بالمغرب)²، وهذا بعد أن رأى فيه ملامح الشاب الثائر وخصال المرید المطيع، وأنه أفهم طلبته ذلك ما يشير إليه صاحب "نهاية الأرب" بقوله: (رأى فيه النجابة والنهضة ما تفرس فيه التقدم والقيام بالأمر)³، فقال له بغية تشجيعه على مسيرته: (لا يقوم الأمر الذي فيه حياة الدين إلا بعبد المؤمن بن علي سراج الموحدين، فبكا الخليفة عند سماع هذا القول، وقال يافقيه ما كنت في شيء من هذا، إنما أنا رجل أريد ما يظهرني من ذنوبي، فقال له المعصوم: إنما تطهيرك من ذنوبك صلاح الدنيا على يديك، ثم دفع له الكتاب وقال طوبى لأقوام كنت مقدمهم)⁴.

حاول البيدق أن يلق اللقاء التاريخي بين عبد المؤمن وابن تومرت في ملالة بنوع من الأسطورة و"علم الغيبات"، ليدهش تلامذته بعلمه، كمعرفته لاسم والد عبد المؤمن "علي" وبلده "تاجرا"، بينما عبد الواحد المراكشي يقول: (فاستدعى عبد المؤمن وخلا به، وسأله عن اسمه واسم أبيه ونسبه)⁵، ومن هنا نفهم أن ابن تومرت قبل لقاء عبد المؤمن بالمسجد تحصل على كل المعلومات الشخصية عنه، ثم أظهر أمام طلبته كأنه يعلم أشياء غيبية، وهذا من بين الأساليب التي اتخذها ابن تومرت لتثبيت دعوته كما سنرى.

لما ظفر ابن تومرت بعبد المؤمن "سراج الموحدين"، قدمه على بقية أصحابه وجعله مستودع سره، كما جعله يهيم بالمسير نحو السوس، والملاحظ أن ابن تومرت قضى فترة طويلة في رحلة الرجوع بالمغرب الأوسط، كما صحبه منها جل أصحابه حسب رواية الزركشي⁶، فمن ملالة نزل متيجة عند جبارة بن محمد والفقير أبي زكرياء، ثم مليانة ووانشريس التي لقي بها عبد الله بن محسن الونشريسي المكنى البشير، ثم منها إلى تينملت بني يزناسن وتنس وفي الشلف نزل عند الفقيه أبي الربيع، وفي البطحاء نزل عند يوسف بن عبد العزيز، وكان في كل موضع ينزل به إلا ويبنى مسجدا ويكتب بخط يده ويسلمه لصاحب الموضع حتى وصل تلمسان⁷.

¹ - ابن القطان، مصدر سابق، ص 77.

² - البيدق، أخبار المهدي، ص 16

³ - نهاية الأرب 153/24.

⁴ - البيدق، المصدر السابق، ص 16 17. كان هذا الحديث بعدما أطلعه على ما في كتاب عنده؟ وقد اتخذ ابن تومرت قراره

بالاحتفاظ بعبد المؤمن بعد قص عليه الرؤيا

⁵ - عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، ص 136

⁶ - تاريخ الدولتين، ص 5.

⁷ - البيدق، أخبار المهدي، ص 19 20. عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 139.

دخل ابن تومرت تلمسان ونزل بأكادير عند ابن صاحب الصلاة¹، واتخذ من مسجد العباد بأعالي تلمسان مكانا للعبادة والتعليم والمذاكرة مع تلامذته، وكان له في نفوس أهل هذه البلدة هيبته، كيف وهو الذي تفتح له أبواب السجن ويتمسح به الحراس ويخرج صاحبه المسجون دون مدافعة، فكان كما قال عبد الواحد المراكشي: (لا يتعذر عليه مراد، ولا يمتنع عليه المطلوب، وقد سخرت له الرعية وذللت له الجبابرة)².

توجه ابن تومرت من تلمسان إلى المغرب الأقصى، وكان كلما حضر مجلس أمير المسلمين يعظه ويغليظ له القول حتى يخلج صدر الأمير بالبكاء، فقال له وزيره: (يقبح بالملك أن يبكي من وعظه، ثم يسيء إليه في مجلسه، وأن يظهر خوفك، وأنت سلطان، من رجل فقير، فأخذته نخوة، وصرفه)³، ودخل السوس عام 515هـ، في صورة أمر بالمعروف ناه عن المنكر، سيما مع الحالة التي كان عليها أهل السوس، بأنهم جهال لا يعرفون من أركان الدين إلا القليل، فعلمهم الصلاة والزكاة والصيام، وغير ذلك من شرائع الإسلام، وتماشيا مع طبيعتهم استجاز لهم أنواعا من المخاريق، ليدعوهم بها إلى الدين⁴.

ساعدت هذه الرحلة المغربية والمشرقية ابن تومرت، على الوقوف على أحوال العالم الإسلامي، فاستوعب أسباب الانهيار والتدهور التي تعانيها دول وإمارات بلاد المغرب، وكان ذلك من الأسباب القوية التي دفعته إلى الطموح في القضاء على أنظمة الحكم الموجودة في بلاد المغرب، والتخطيط لإقامة دولة قوية في بلاد المغرب على أساس المذهب التومرتي.

¹- وهو عبد الملك بن محمد بن احمد بن محمد بن إبراهيم الباجي المعروف بابن صاحب الصلاة، صاحب كتاب "المن بالإمامة على المستضعفين" و"ثورة المرينيين"، كان حيا سنة 594هـ ينظر: كتاب المن بالإمامة، لابن صاحب الصلاة، تحقيق إبراهيم التازي، ص ص 10 20.

²- عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، ص 139.

³- الذهبي، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1409هـ-19/539.

⁴- ابن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الإسلام - مكتبة المعارف-الرباط، الطبعة الثانية، 1401هـ، 11/476.

المحاضرة الثانية:

فكر وعقيدة ابن تومرت

أولاً: مكونات مذهب ابن تومرت

1- اعتقاد الإمامة

2- المهدوية:

3- العقيدة الأشعرية

4- المذهب الخارجي

5- المذهب الظاهري

6- المذهب المعتزلي

فكر وعقيدة ابن تومرت

إن أي حركة تغييرية تبني منهجها ومقولاتها من خضم الواقع الذي انطلقت منه، لأن الوعاء الاجتماعي الذي حمل تلك الأفكار والمناهج هو نفسه الذي سيحمل الحركة التغييرية، فكان من الطبيعي على صاحب أي حركة أو فكرة أن يوظف الطاقة الاجتماعية التي سرتها الأطر القديمة ليحقق المنشود، حتى في ظل مقاومة النخب الحاكمة، فمثلا الدولة المرابطية وفقهاؤها كفروا معارضتهم وأحرقوا كتبهم، ومارسوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في بداية حركتهم، فكذلك ابن تومرت سيكون قاسيا جلفا في معارضة المرابطين، وسيعمل على نسف نسقها الإيديولوجي-الفقهي عبر شن حملة دعائية ضدهم، إذ رماهم بالكفر والتجسيم، وأظهر عقم فقهاءهم عبر مناظرتهم، ومارس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إن الإطار الفكري والعقدي الذي نسجه ابن تومرت لدعوته، يمثل الملمة لتراث الحركات المذهبية التي عرفها العالم الإسلامي، يضاف إليها الخصوصية المغاربية حتى القرن 12/هـم، حيث كان ينتقي مقولاتها بذكاء بما يتماشى ومشروعه التغييرية، متخفيا وراء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد جمع تلك المقولات في كتابه "أعز ما يطلب" (والتي يظهر من خلالها تعطش هذا الأخير للعلم وتأثره بمختلف المدارس والاتجاهات التي تعرف عليها، دون الانسياق كليا وراء أي منها، ودون الانزعاج من التناقضات التي بينها حول المفاهيم الدينية)¹.

أولا: مكونات مذهب ابن تومرت

1- اعتقاد الإمامة

إن فاعلية ابن تومرت في رحلة العودة جعلت أتباعه يلقبونه بالإمام والفقهاء، وذلك اعتقادا من العامة أن كل من تقدم الجماعة للصلاة والدرس، لقب بالإمام ويصطلح عليها (الإمامة الصغرى)، لكن ابن تومرت ربط الإمامة بالعصمة وأصبحت مرادفة للمهدوية، ويرى أنها واجبة الاعتقاد وركن من أركان الدين (إلى أن تقوم الساعة، ما من زمان إلا وفيه إمام لله قائم بالحق في أرضه ... ولا يكون الإمام إلا معصوما من الباطل ... معصوما من الظلال ... معصوما من الجور)². ويؤكد صاحب "نظم الجمان" عصمة ابن تومرت بأثر رجعي حينما يتكلم عن نجاته من الغوغاء بالأسكندرية عندما هموا بإذابته وهو في مسلكه لمجالس الإمام الطرطوشي، وما "أظهره الله من العبر" لما هم أهل المركب بإغراقه فقال حاج من ركاب المركب: (تداركوا انفسكم بإرضاء هذا الرجل لعل الله يفرج عنكم)³، وعصمه الله من شر صاحب المهدية، بوصيه من الفقيه المالكي المازري الذي قال له: (أخاف عليك عاديته وعادية جنده، فخرج إلى المنستير)⁴. كما عصمه من العزيز بن منصور بن الناصر بن علاء الناس بن حباد ملك بجاية.

¹ - هويثي أمبروسيو ميراندا، التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، ترجمة: عبد الواحد أكيمير، منشورات الزمن الطيبة الثانية 2015، ص 37.

² - محمد بن تومرت مهدي الموحد، مصدر سابق، ص 229.

³ - ابن القطان، مصدر سابق، ص 92.

⁴ - نفسه، ص 93.

يرى ابن تومرت إن الإمامة واجبة الاعتقاد، لأن أمر الإمام هو (أمر الله ورسوله، وطاعته طاعة الله ورسوله... وموالاته موالاته الله ورسوله... فهذه الجملة واجب اعتقادها والتدين بها والتزامها ما بقيت الدنيا)¹، إن الإمامة بهذا التوصيف لا تخرج عن معتقدات الشيعة الإمامية الذين يرون أنها (ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة،... بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام... ويكون -الإمام- معصوماً من الكبائر والصغائر)²، بينما مقام الإمامة العظمى في منهج أهل السنة والجماعة، ليست من أصول الدين التي لا يسع المكلف الجهل بها.

كما يزعم ابن تومرت أن الإمامة قائمة في الأرض من لدن آدم إلى نوح ومن بعده إلى إبراهيم عليهم السلام، ومن بعده النبيون، لقوله تعالى: (إني جاعلك للناس إماماً، قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين)³، وظل الأمر كذلك للنبي الإمام فتمت ضياع أمر الإمام أو عصي زال "العمود" وخر السقف من فوق، حتى كان الأمر للرسول محمد (ص)، وعليه فاستمرار الصلاح على الأرض يكون بوجود الإمام والاعتقاد بوجوده ركن من أركان الدين.

إن هذا المفهوم يندرج ضمن مقولات الشيعة الإمامية، لكن ابن تومرت وفي نفس الرسالة "الإمامة"، يحاول أن يقارب الإمامة عند الشيعة بالإمامة الكبرى "الخلافة" عند أهل السنة والجماعة، ويجعلها سيان بل ويقر بإمامة الخلفاء الراشدين، ومن بعدهم تفرقت الأمة "أفراق وأهواء ونزاع واختلاف" ولا تتحقق الوحدة إلا على مهدي آخر الزمان الذي لا يعدو أن يكون سوى شخصه. وفي ذلك رفض آخر من ابن تومرت لأئمة الشيعة الإثني عشرية والموسوية والكيسانية والزيدية. بينما يذكر ابن خلدون أن الخلافة والإمامة عند أهل السنة (هي حمل الكفاية على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدينية الراجعة إليها)⁴.

تروى الرافضة إن الإمام كالنبي يجب أن يكون معصوماً من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن، من سن الطفولة إلى الموت عمداً وسهواً، كما يجب أن يكون معصوماً من السهو والخطأ والنسيان⁵. ويستند ابن تومرت إلى الأحاديث المتواترة عن المهدي في مؤلفاته يقول: (لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي)⁶. وجاء في المسند (لا تقوم الساعة حتى تمتلئ الأرض ظلماً وعدواناً، قال ثم يخرج رجل من عترتي أو من أهل بيتي يملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وعدواناً)⁷ قول ابن تومرت بالعصمة وافق الرافضة الإثني عشرية الذين قالوا بالعصمة لأئمتهم حيث يقولون بوجود عصمتهم من الكبائر والصغائر والنسيان.

والملاحظ إن ابن تومرت لم تكن تهمة الدلالة المفاهيمية للإمامة وإنما كان يهمة أن تكون الإمامة حبل يلف عنق كل القبائل للإتيان إليه وطاعته، وعليه كان يهمة الجانب العملي والسياسي من الإمامة لأن مدارها الطاعة والإتيان

2-المهدوية:

1- محمد ابن تومرت، مصدر سابق، ص 235. ابن القطان، مصدر سابق، ص ص 234 235.

2- ابن خلدون عبد الرحمن، مقدمة العلامة ابن خلدون، دار الفكر، بيروت 2004، ص 194.

3- سورة البقرة الآية

4- ابن خلدون، مقدمة، ص 189.

5- محمد رضا المظفر، عقائد الإمامية، ص 72

6- ابن تومرت، مصدر سابق، ص 245.

7- مسند الإمام أحمد بن حنبل 36/3. ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني رقم 1529.

من أبرز مظاهر تأثر ابن تومرت بالرافضة الادعاء بأنه المهدي المنتظر¹، وهذا مرتبط بزعمه أنه قرشي النسب (ولما استوثق الإمام المهدي ... من قبيلته ومنعه موضعة، لأنه مكان لا يصل إليه أحد إلا عن طريق لا يمسيها إلا راكب، بعد راكب ... قصد إلى قرية إيجليز)² قال في خطبته حينما تم مبايعته إماماً عام 515هـ / 1121م (الحمد لله الفعال لما يريد القاضي بما يشاء لا راد لأمره ولا معقب لحكمه وثلى الله على سيدنا محمد المبشر بالمهدي الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً بيعته الله إذا نسخ الحق بالباطل وازيل العدل بالجور مكانه بالمغرب القصي واسمه اسم النبي ونسبه نسب النبي ...)³، بعدما فرغ من كلامه تقدم إليه عشرة من أصحابه منهم ابن القطان فقال له: (هذه الصفة لا توجد إلا فيك، فأنت المهدي، فبايعناه على ذلك)⁴. ونفس الرواية يؤكدتها الزركشي (ولما اكتملت بيعته لقبوه بالمهدي وكان لقبه قبل الإمام)⁵، وأجبر من تخلف عن بيعته من القبائل المصمودية وغيرها على الطاعة تحت طائل التهديد والقتل.

قضية المهودية نجدها ماثلة عند السلف وفي أحاديث الرسول "ص" (لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه إسمي)⁶ وقوله: (لا تقوم الساعة حتى تمتلئ الأرض ظلماً وعدواناً قال ثم يخرج رجل من عترتي أو من أهل بيتي يملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وعدواناً)⁷، إن الأحاديث في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر حولي خمسين حديثاً، فيها الصحيح والحسن والضعيف، وأما الآثار عن الصحابة المصروحة بالمهدي، فهي كثيرة.

أما دعوى النسب القرشي، وقد قال المؤرخون عن هذا الانتساب أنه (دعوى الكذب والزور من أنه حسني وهو هرغي بربري وأنه إمام معصوم وهو بالإجماع مخصوم)⁸. فكل صاحب دعوة أو رباط في بلاد المغرب ينسب نفسه إلى آل البيت، في حين يعلم الجميع أنه أمازيغي صريح.

¹ - يقول في كتابه أعز ما يطلب: (يعرف المهدي رضي الله عنه بسنة اشياء: الحسب والنسب والزمان والمكان والقول والفعل. فاما الحسب فحسب حزب الموحدين واما النسب فإنه من ذرية فاطمة، وأما الزمان فيأتي في آخر الزمان واما المكان فالمكان الذي قام منه، واما القول فإنه قال: أنا المهدي "وهو صادق" في قوله، واما الفعل فإنه بفتح الدنيا شرقها وغربها) ص 254.

² - ابن القطان، مصدر سابق، ص 124.

³ - نفسه، ص 57.

⁴ - العشرة هم: الونشريسي، عمر أصناج، أبو محمد بن تومرت، أبو يحيى، أبو بكر بن يجيب، الأحسن بن علي، عمر الهنتاتي، أبو محمد البشير، أبو ابراهيم الهزرجي و أبو الربيع سليمان بن الحضري. وهؤلاء هم المسمون بالجماعة. ينظر: ابن القطان، نظم الجمان، ص 125.

⁵ - أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، الطبعة الثانية ب ت، ص 6.

⁶ - الترمذي محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الجامع الكبير سنن الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في المهدي رقم 2230، وقال حديث حسن. تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998.

⁷ - محمد بن حبان، صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية 1993، الحديث رقم: 6823

⁸ - شمس الدين الذهبي، العبر في خبر من غير، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسبوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1405، 412/2.

3- العقيدة الأشعرية

يقول ابن خلدون: (وكان قد لقي بالمشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم واستحسن طريقتهم في الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية الواقعة في صدر أهل البدعة، وذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه من الآي والأحاديث، بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن أتباعهم في التأويل والأخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف في ترك التأويل وإقرار المتشابهات كما جاءت، ففظن أهل المغرب في ذلك وحملهم على القول بالتأويل والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد وأعلن بإمامتهم ووجوب تقليدهم)¹.

الملاحظ من ذلك أن ابن تومرت كان سنيا سلفيا في عقيدته، دون إقرار المتشابهات مع الأخذ بالتنزيه وتأويل المتشابه على طريقة الأشاعرة. أي أن ابن تومرت على الرغم من انتصاره للعقائد السلفية إلا أنه كان جل ما يدعو إليه علم الاعتقاد على طريق الأشعرية.

ومن التناقض في عقيدة ابن تومرت أنه أخذ من الأشاعرة مسائل الصفات، وترك مسألة الخروج على الولاية، التي قال فيها الأشعري بعد عرض أقوال الناس فيها: (السيف باطل ولو قتلت الرجال وإن كان الإمام قد يكون عادلاً وغير عادل، فليس لنا إزالته وإن كان فاسقاً، وأنكروا الخروج على السلطان)² وهذا منحى أهل الحديث.

كما أنه أخذ موقف أهل السنة والجماعة من الصفات، لا يميز فيها أي قياس أو اشتقاق أو صطلح (أسماء الباري سبحانه موقوفة على إذنه لا يسمى إلا بما سمي به نفسه ... لا يجوز القياس والاشتقاق والاصطلاح)³، وبذلك فهو يحلل فكرة تنزيه الله وإبعاد أية شبهة عن ذاته توحى بالتشبيه. وبذلك فهو يدعو إلى تأويل المتشابه من الآيات⁴، والأحاديث، حتى لا يقع في التجسيم الذي يرمي به المرابطين.

4- المذهب الخارجي

تأثر ابن تومرت بالفكر الخارجي، كونه يكفر أصحاب الذنوب والمعاصي، وأهل السنة عموماً (لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر كما يفعل الخوارج، بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي، كما قال سبحانه وتعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين)⁵، ولذلك ألف ابن تومرت رسالة في "بيان طوائف المبطلين من الملتئمين والمجسمين وعلاماتهم".

¹ - ان خلدون، تاريخ ابن خلدون، 303/6

² - الأشعري، مقالات الإسلاميين، 140/2.

³ - ابن تومرت، مصدر سابق، ص 221.

⁴ - كقوله تعالى: (يد الله فوق أيديهم) الفتح 10 (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) الرحمن 27 (الرحمن على العرش استوى) طه 5.

⁵ - سورة الحجرات الآية 9.

كما قرر أن ولاية المرابطين كفارا، بسبب إباحتهم أكل أموال الناس بالباطل وأخذ أموال اليتامى والأرامل¹. ونعتهم بالمجسمة، في حين أبطل عنهم ابن تيمية هذه الصفة، فقال: (زعم أنهم مشبهة مجسمة، ولم يكونوا من أهل هذه المقالة، ولا يعرف عن أحد من أصحاب مالك إظهار القول بالتشبيه والتجسيم)².

5-المذهب الظاهري:

درس ابن تومرت المذهب الظاهري في قرطبة، على يد أحد تلامذة ابن حزم، وهو المذهب الذي يرفض التقليد والانسحاق وراء ما تتضمنه كتب الفقه، ويسعى إلى الارتباط المباشر بالنص القرآني والحديث الشريف، يبطل ما يبطله ويقر ما يقره، دون الأخذ بالقياس، الذي يعتبر إحدى مصادر التشريع عند أهل السنة. فابن تومرت رفض نوع من القياس وقبل بآخر. كما أن ابن حزم صاحب المذهب الظاهري يرفض التأويل.

يقول هويثي في هذا السياق، أن ابن تومرت (اتخذ موقفا وسطا بين موقف ابن حزم الراض للقياس وموقف مدرسة العراق الداعية له، بحيث ميز بين نوعين من القياس، قبل أحدهما وهو القياس الجلي ورفض الآخر وهو القياس العقلي... والخلاف الجوهرى مع المذهب الظاهري لم يكن في هذه النقطة، وإنما في طبيعة العلاقة بين هذا المذهب والفقه، فقد حاول ابن حزم أن يجد علاقة توافق بينهما وهو ما رفضه ابن تومرت الذي أخذ بعد ذلك بالعقيدة الأشعرية والتي يعتبر ابن حزم عدوها اللدود)³. يتضح من ذلك أن ابن تومرت اطلع بالمذهب لما كان بالأندلس إن لم أقل تأثر ببعض مقالاته.

المذهب المعتزلي:

حسب عبد الواحد المراكشي أن ابن تومرت وافق المعتزلة في الصفات وفي مسائل قليلة غيرها، بينما قوله بالعصمة والإمامة قارب الجبرية، وأصبح معارضا للمعتزلة (كان على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل إلا في إثبات الصفات فإنه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها)⁴.

نلخص في النهاية إلى مجارة وصف المستشرق ليفي برو فنسال لشخصية ابن تومرت حين قال: (شخصية تستهوي من حولها إلى أقصى حد، ونفس بسيطة ومعقدة في آن واحد، وعالم إن شئنا، ومصالح ديني، إلا أنه سياسي بلغ الغاية في الألمعية والإخلاص، مؤمن برسالته إيمانا يفضي به إلى الرغبة في أن يحققها بقوة ضاربة. وقالوا عنه: خائن كذاب، وكان في الإمكان اتهامه بالجنون والدروشة والشطحات الصوفية، ولكنه لم يهتم قط في ذكائه. ومجمل القول أنه كان شعلة ذكاء بربرية إذا جاز لنا ذلك، وهذا مع صفاء في النفس لا يخلو من الرقة الحضرية والريية فبين حوله)⁵

1- محمد بن تومرت، مصدر سابق، ص 106.

2- ابن تيمية، مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية، مكتبة المعارف، الرباط، الطبعة 2 1401 . 476/11.

3- هويثي، مرجع سابق، ص ص 37 38.

4- عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، ص 141.

5- ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ص ص 137-138.

لم يكن ابن تومرت صاحب مدرسة فكرية تعرف به، لها فلسفتها وأفكارها وقضاياها التي تطرحها وتناقشها وتعمل على تثبيتها ونشرها، ولم يكن ابن تومرت رجل فكر بحت فقط، ولا كان رجل سياسة فقط، بل إنه في الحقيقة جمع في شخصه رجل الدين ورجل العلم ورجل السياسة.

المحاضرة الثالثة:

ابن تومرت في مواجهة المرابطين

أولاً: المواجهة الفكرية:

أ- في اتجاه العامة:

ب- في اتجاه السلطة

ثانياً: المواجهة العسكرية

ابن تومرت في مواجهة المرابطين

إن الأدوات التي وظفها ابن تومرت، كانت كفيّلة بذبوع صوته بين الطلبة والعامّة على حد سواء في بلاد المغرب، كما أن الصورة التي روجتها المصادر الموحدية عن ابن تومرت بصفته المصلح الديني والاجتماعي، تؤكد طبيعة الدهنية المغاربية، التوافقة للتجديد الديني والاجتماعي من جهة، وتكريس المحلية السياسية بعيدا عن السلط الوافدة من جهة ثانية، فألى أي مدي استطاع ابن تومرت تجميع الوسط المغاربي ضد المرابطين؟ وماهي الأدوات الموظفة في تحقيق ذلك؟

أولا: المواجهة الفكرية:

أ- في اتجاه العامة:

سعى ابن تومرت إلى استقطاب الاتباع وتكوين الطلبة، فكان الاستقطاب بإظهاره الزهد في الدنيا والتشف والورع، وإظهار نفسه أنه مجاهد في سبيل إحقاق المعروف والنهي عن المنكر، فمنذ أن (أقبل محمد بن تومرت من المشرق يؤم بلاد المغرب متوكلا على الله عازما على إقامة شرائع الله تعالى وسنة نبيه عليه السلام)¹. ومن ذلك أنه كان في مراكش عاصمة المرابطين، يمشي في الأسواق والشوارع يريق الخمر ويكسر آلات الطرب ولا يخشى في ذلك السلطان²، ويؤذب العامة ممن أظهر مخالفته للشرع، إذ يشير إلى ذلك صاحب المعجب بقوله: (أخبرني من رآه - ممن أثق به- يضرب الناس على الخمر بالأكمام والنعال وعسب النخل، متشبهًا في ذلك بالصحابة)³، كما تميزت سيرته بالزهد ولبس لحشن قانعا باليسير بعيدا عن ملذات الدنيا، ذا هيبة ووقار، لا يبتغي غير رياسة الأمر الذي يدعوا له.

اتخذ ابن تومرت في رحلته من المساجد ملاذا ومأوى له، سواء في قسنطينة أو بجاية أين بنى مسجدا، وأقام في مسجد العباد بتلمسان، وغيرها، وكان في كل محطة ينزل بها يدرس الطلبة علم الاعتقاد على طريقة الأشعرية، ويظهر لهم الضعف الفقهي الذي عليه فقهاء المرابطين وفساد أمرائهم، لأنه حسب ابن القطان (عالما متمليا من علوم الحديث والأصوليين... كان ينهي عن التقليد وقراءة كتب الرأي مجتهدا متبحرا)⁴، ويقرب إليه الطلبة ذوي ثقته فيخبرهم بأمره، حتى أخذ يشيع عند الناس انه المهدي المنتظر.

استطاع ابن تومرت عبر هذه الدعاية الإعلامية المناهضة للمرابطين، إلى إحداث انفصام بين حكام المرابطين والعامّة، بفضح سياستهم وإمعانًا في تقييح صورتهم من خلال إطلاق ألقاب نابذة ضدّهم بقوله: "المجسمون" و"الزراجنة"⁵ و"الحشم"¹ و"الكفرة"، وقدح ابن تومرت في شرعيتهم وآدابهم، بقوله لأتباعه: (إنهم تسموا بأمراء

¹ - ابن أبي الزرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، صور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص 173.

² - نفسه، ص ص 173 174

³ - عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، ص 145

⁴ - ابن القطن، مصدر سابق، ص 90.

⁵ - وهو طائر أسود البطن أبيض الريش يسمى الزرجان لنهم بيض الثياب سود القلوب

المسلمين، وإنما يعرفون بالمثلثين وأخبرهم أنهم هم القوم الذين وصفهم النبي "ص" بقوله: صنفان لا يدخلون الجنة، الأول هم قوم يخرجون في آخر الزمان لهم سياط كأذنان البقر، ونساء كاسيات عاريات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت، وكل ما وصف رسول الله "ص" في أمراء آخر الزمان نسبة إليهم فاستهوا بذلك قلوب الرعاع الجهال².

لم يكن الغرض من هذه الأعمال والدعاية، إلا استقطاب العامة الذين توافدوا عليه لمبايعته بـ "المهدوية"، ولضمان ولائهم سيما من المصامدة، والقبائل التابعة لها، أين بدء بمشروع تكويني دعا إليه في البداية الطلبة النجباء، يدرسههم كتب التوحيد باللسان البربري، وجعل لهم فيه الأعشار والأحزاب والسور، وجعل من حفظه مؤمن ومن نأى عنه فهو كافر، لا تجوز إمامته ولا توكل ذبيحته، حتى صار هذا التوحيد عند المصامدة كالقرآن العزيز، وتبرير ابن أبي الزرع في ذلك (لأنه وجدهم قوماً جهلة لا يعرفون شيئاً من أمور الدنيا ولا من أمور الدين، فاستهواهم بكيدهم وغلهم بعذوبة لفظه ولسانه ومكره.... ويتبركون بذكره على موآئدهم)³، ونهج لمن معه طريق الأدب مع بعضهم بعضاً، والاقتصار على لباس الثياب القليلة الثمن.

كما بعث الوفود من طلبته إلى القبائل، ليدعونهم إلى مبايعة المهدي ويعلمونهم التوحيد، طلب منهم (أولا على صورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا غير، ونهاهم عن سفك الدماء ولم يأذن لهم فيها، وأقاموا على ذلك مدة، وأمر رجالاً ممن استصلح عقولهم بنصب الدعوة واستمالة رؤساء القبائل)⁴، فأقبلت إليه أفواج القبائل من الجبال شرقاً وغرباً وظل على هذا الحال حوالي ثلاث سنوات، قبل انتقاله إلى تملل وبدء محاربة المرابطين، وخلال هذه المدة كثر أتباعه ونفذت كلمته بين المصامدة (ولم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر، وفتنتهم به تشتد، وتعظيمهم له يتأكد، إلى أن بلغوا في ذلك حد، لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء)⁵.

ب- في اتجاه السلطة:

كان للدعاية الدينية التي أثارها ابن تومرت لنفسه، والقدر في المرابطين وفقهائهم⁶، أن بلغ ذلك مسامع أمراء الدولة المرابطية، فكان أينما حل في رحلة عودته إلى المغرب، إلا قابله اضطهاد عمال المرابطين، وفي كل مرة ينفذ ويسير نحو بلده، أين سيظهر أمره.

وظف ابن تومرت خبرته وعلمه في مواجهة المرابطين وإخام فقهاءهم، وكان يغلظ في سبهم لإبعاد العامة عن سلطتهم بإظهاره الورع والتقشف والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو في ذلك يتحين الفرصة لمواجهة فقهاء

¹ - لاتخاذهم اللثام كالحشم، ينظر: ابن القطان، نظم الجمان، ص 85.

² - ابن أبي الزرع، مصدر سابق، ص 182.

³ - نفس المصدر، ص 177.

⁴ - عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، ص 141.

⁵ - نفسه، ص 143.

⁶ - المصدر السابق، ص 139 (فجمع والي المدينة فاس- الفقهاء وأحضره معهم فجرت له مناظرة كان له فيها الشفوف والظهور لأنه وجد جواً خالياً)

المرابطين في مراكش لضحظ مقولاتهم وإظهار أمره منها، فأمام ما أحدثه ابن تومرت من توجيه للرأي العام بمراكش، لم يجد أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين بدا من مقابلته بحضور فقهاء البلاط.

كشف اللقاء الحاصل بين الفريقين عن مدى الضعف الفقهي الذي كان عليه فقهاء الدولة والتفوق العلمي لابن تومرت، ولا أجد ما يعبر عن ذلك إلا رواية ابن أبي الزرع الذي وصف لقاء المسجد الجامع، الذي يبدو أنه كان على مرحلتين: الأولى¹ حاول من خلالها ابن تومرت إظهار نفسه بأنه صاحب الحسبة، وعاب على حكام المرابطين عدم القيام بها رغم أنها من مسؤولياتهم،

أما اللقاء الثاني فكان يمثل مواجهة فكرية، ترسمت على إثره تدني مكانة فقهاء وأمراء الدولة عند الناس، ومن جهة أخرى أظهر ابن تومرت مقولاته وتفوقه، مما جعله عرضة للمطاردة من السلطة القائمة، لكن نجد اختلافاً في نص المناظرة بين ابن تومرت وفقهاء المرابطين، فنص البيدق يبدو أكثر اختصاراً للمناظرة، بقوله: (فذاكرهم المعصوم فأفهمهم)²، كما يشير إلى عبارة تؤكد توجس أمير المسلمين علي بن يوسف من ابن تومرت، لأن سقوط دولته يكون على يديه كما أخبره الفقهاء بذلك، نرى أن هناك استحضاراً واضحاً من طرف البيدق³ لمقولة أبي حامد الغزالي عندما بلغه تمزيق وإحراق المرابطين لكتابه الإحياء.

بينما رواية ابن أبي الزرع⁴، تفصل في هذه المناظرة من حيث نوعية الحضور مثل أمير المسلمين وفقهاء مراكش وطلبها وأشياخ لتونة، حيث يشير أن المجلس امتلاً وغص بالناس، كما ذكر موضوع المناظرة التي انتهت بموقف الفقهاء من ابن تومرت، موقف مناهض يتقدمهم القاضي مالك بن وهيب بقولهم: (هذا رجل خارجي مسعور وأحمق صاحب جدل ولسان يضل جهال الناس، وإن بقي بالدنيا يفسد عقائد أهلها، وينشر ذلك بين الناس حتى يرسخ ذلك بين في قلوب أكثر العامة)⁵، وموقف مستعطف يتقدمهم ينان بن عمر الذي قال: لا تلتفت إلى هذا الرجل الضعيف فخلي سبيله⁶، كما كانت له مجالس في مراكش وخارجها يعلم الناس "التوحيد"، وينفرد ابن أبي الزرع الزرع بروايات⁷ حول ما كان من أمر ابن تومرت وعلي بن يوسف وفقهائه لما خرج من مراكش، والتي لم ترد في كتاب البيدق. حيث يورد هذا الأخير أنه لما وصل ابن تومرت أغات وصل رسول علي بن يوسف يطلبه.

قام المهدي وأصحابه في جبل درن إلى شهر رمضان من 515هـ / 1121م، واجتمع عليه خلق كثير، فلما رأى ذلك أظهر دعوته ودعا الناس لبيعته، فكانت بيعته الخاصة يوم الجمعة 15 رمضان وفي 16 من الشهر نفسه

¹ - ابن أبي الزرع، مصدر سابق، ص 174. تختلف رواية ابن أبي الزرع المتأخر عن رواية البيدق في "أخبار المهدي بن تومرت"، ينظر: ص 27.

² - البيدق، أخبار ابن تومرت، ص 27.

³ - هذا بناء على رواية البيدق في حصول اللقاء بين الغزالي وابن تومرت.

⁴ - ينظر الملحق رقم 1

⁵ - المصدر السابق، ص 175. (وكان قاضي مراكش مالك بن وهيب حذر منه الأمير علي لأنه كان حزاء ينظر في النجوم... واجعل على رجليه كبلًا لنلا يسمعك طبلًا). ينظر: الزركشي، مصدر سابق، ص 5

⁶ - مجهول، الحلل الموسوية، ص 74

⁷ - ابن أبي الزرع، مصدر سابق، ص 175 وما بعدها.

خرج لمسجد تملل بمعية أصحابه العشرة متقلدين سيوفهم (فصعد المنبر وخطب الناس واعلمهم انه الإمام المهدي المنتظر ... واطهر دعوته إلى بيعته، فبايعه كافة أهل تملل ومن جاورهم بها من الناس وبقي بعد ذلك يستجلب القبائل وفرق من يثق بسياسته من تلاميذه في البلاد القاصية والدانية يدعون إلى بيعته ويثبتون عند الناس إمامته ويزرعون في قلوبهم محبته مما يذكرون له من الفضائل والكرامات)¹ حتى اجتمع لديه ما يزيد عن العشرين ألف، واختار منهم جيشا من عشرة آلاف رجل من خيرة أجناد الموحدين.

ثانيا: المواجهة العسكرية

منذ بداية الدعوة عمل ابن تومرت على الاستعداد للمواجهة العسكرية والتي بدأها بتكفير المرابطين وادعائه بالمهدوية، وعمل على تجييش أصحابه ويزيدهم عزيمة على مواجهة المرابطين، فخطبهم قائلا: (ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم، وأتم العصاة المعنيون بقوله عليه الصلاة والسلام: لا تزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله، وأتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم، ويقتل الدجال، ومنكم الأمير الذي يصلي بعيسى بن مريم، ولا يزال الأمر فيكم إلى قيام الساعة)² ويعدد البيدق³ في كتابه عشر غزوات للمهدي ضد المرابطين.

ففي الفترة الممتدة من 516هـ / 1122م إلى 519هـ / 1125م، عمل ابن تومرت على إعداد جيشه وتدريبه وبين الفينة والأخرى يباغت جيوش المرابطين، كما أنظمت إليه قبائل كدميوه وبلاد رجاجة، وأكثر قبائل المصامدة لمحاربة لمتونة وغيرهم فانهزمت هذه الأخيرة، فسيطر على جميع قلاع جبل درن وطاعته جميع من فيه من قبائل هنتاتة وجنفيصة وهرغة وغيرهم ثم رجع إلى تملل⁴.

جهز ابن تومرت جيشا عام 517 هـ / 1123م، لمحاربة المرابطين وقال لهم: (أقصدا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين، فادعوهم إلى إماتة المنكر ... فإن أجابوكم فهم إخوانكم لكم، ما لهم وعليهم ما عليكم، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم، فقد أباحت لكم السنة قتالهم)⁵، وبالفعل أثنى الموحدون السيف في جيش المرابطين، وطاردهم حتى احتموا بأسوار مراكش، فحاصرها الموحدون أياما، ثم ارتحلوا عنها إلى الجبل لما شكارت عليهم جيوش لمتونة.

مع رغبة الموحدين لدخول مراكش، يبدو أن علي بن يوسف استشرف هدف ابن تومرت، فركز جميع قواته بتلك النواحي بقيادة بكر بن علي بن يوسف وإبراهيم، متحينا الفرصة للإقتضاض عليهم، فكان ذلك في رجب 524هـ، حينما باغتوا جيوش ابن تومرت بقيادة عبد المؤمن بن علي ومحمد بن البشير بالبحيرة من جهة باب إيلان ودارت الحرب لثلاثة أيام فهزموهم وأثخنوا فيهم.

¹ - نفسه، ص 176 وما بعدها

² - عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، ص 256-257.

³ - البيدق أخبار ابن تومرت، ص ص 35 41.

⁴ - ابن أبي الزرع، مصدر سابق ص 178.

⁵ - المصدر السابق، ص ص 259 260

فلما جاء الخبر لابن تومرت عن المعركة، قال: أليس قد نجا عبد المؤمن؟ قالوا: نعم، قال: لم يفقد أحد¹، إن إطمئنان ابن تومرت لعبد المؤمن، يبرز عظم المكانة التي يتمتع بها ضمن المشروع الموحد، وزاد انهماك الموحد من معاناة ابن تومرت مع المرض، وأيقن بالموت، فدعا عبد المؤمن بن علي (فأوصاه بما أحب وأوصاه بإخوانه خيرا واعطاه كتاب الجفر الذي صار إليه من قبل الإمام أبي حامد الغزالي- كما يزعم الموحدون- ... وأمره ان يخفي أمر موته اياما إذا مات حتى تجتمع كلمة الموحدون ... وتوفي يوم الخميس الخامس والعشرين من رمضان المعظم سنة أربع وعشرين وخمسة مائة)² وبوفاة ابن تومرت تبدأ مرحلة جديدة أكثر فاعلية، بينما توجهاته ظلت حاضرة بين الموحدون.

¹ - عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، ص 144.

² - ابن ابي الزرع، مصدر سابق، ص 180. المعجب، ص 145

المحاضرة الرابعة:

الرؤيا والمكائد المؤسسة للدولة الموحدية

أولاً: على عهد ابن تومرت:

ثانياً: على عهد عبد المؤمن

الرؤيا والمكائد المؤسسة للدولة الموحدية

الملاحظ من خلال ما ورد في المصنفات التاريخية عن ابن تومرت، أنه تستر وراء مقولات وممارسات يزعم أنها من وحي الغيب، وأن العناية الإلهية تحفه أينما حلّ و ارتحل، كما استغل الهيبة التي غرسها في نفوس الأصحاب والعوام في تحقيق مآربه وتمير رسائله. سيما وأن الذهنية المغاربية المرابطية الفكرية والثقافية المبنية على الوحدة الفقهية المالكية وما واجهها من قوة موحدية، ساهمت في انتشار تلك "الكرامات"، التي زادت من التفات الناس حول الدعوة الموحدية ممثلة في شخص ابن تومرت.

إن ما بثه المهدي بين طلبته من علم و"كرامات" تردد صداه في بلاد المغرب حتى أصبح يلقب بالإمام والفقهاء، سيما وانه رسم لنفسه صورة الرجل الزاهد صاحب البدلة الرثة والذي يحمل في يده عصا، الصادع بالمعروف الناهي عن المنكر، الذي لاتلومه في الله لومة لائم، إن الخيال المغاربي يدرك مدى قيمة هذا الرمز، سيما إذا تشبع بمطالعة ما ورد في بعض كتب التنجيم مثل "كتاب الجفر" بل كان ابن تومرت مفرط في الاعتناء بهذا الشأن، حيث وظف كل الحيل والمكائد في سبيل تحقيق المقصد.

أولاً: على عهد ابن تومرت:

إن الرواية التي سبق لنا التطرق إليها، والتي ترصد المشهد الخاص بلقاء عبد المؤمن بابن تومرت، تكشف لنا عن البطل الذي لم يكن عبد المؤمن الذي تلمس فيه ابن تومرت علامات الفطنة ومخايل النبوغ والمعرفة، وإنما هو ابن تومرت، وما عبد المؤمن إلا الوسيلة التي حقق بها ابن تومرت البطولة النابعة من "سحر الغيب"، ويتجلى لنا ذلك في رواية الشاهد البيدق، حينما قال لتلاميذه: (يصلكم غدا طالب طوبا لمن عرفه وويل لمن أنكره)، ولما تعجب الحاضرون في المجلس من قول ابن تومرت لعبد المؤمن أبوك على؟ وزاد الناس تعجبا بمعرفة المهدي لـ "تاجرا" مكان إقبال عبد المؤمن¹ إن هذا اللقاء مرتبط في ذهنية ابن تومرت بساعة النصر، وأنه نطق بذلك وهو في جمع من طلبته عند شجرة الخروب بقارة الطريق، حيث قال: (الحمد لله الذي أنجز وعده ونصر عبده وانفذ أمره)، من شأن هذه "الشطحات" أن تدهش طلبته وتزيدهم إيمانا به.

ومن دسائسه ما كان من أمر صاحبة البشير الونشريسي، الذي ظهر في بداية أمره أنه أمي لا يكاد يفقه شيئا من القرآن، ولا ركوب الخيل، ثم أصبح حافظا للقرآن فارسا مقداما، بل أضحي مطالعا على النفوس، ولم يكن ذلك إلا بدسياسة تومرتية يظهر بها مهاديته للمتريدين، وفي ذلك يورد ابن القطان الرواية حين فقال لهم ابن تومرت: (تعلمون هذا الشيخ البشير؟ فقالوا له: ومن البشير؟ قال لهم: هو الونشريسي. تعلمون انه أمي لا يقرأ ولا يكتب، وتعرفون أنه لا يثبت على قدمية، وقد جعله الله مبشرا لكم مطالعا على أسراركم، وهو من آية الله تعالى في هذا الأمر. فأول كراماته أنه حفظه الله القرآن، وعلمه الركوب، ثم

¹ - البيدق، أخبار المهدي، مصدر سابق، ص 16.

استعرضه أمامهم فحفظ، فعرضه عليهم في أربعة أيام: في كل يوم ربع، وأجرى أمامهم حصانا أتقن ركوبه غاية الإتقان، فاستغربوا أمره وأعجبهم وصدقوا ذلك تصديقا قويا¹.

بعدهما أظهر المهدي لأصحابه "كراماته" والحال التي أضحى عليها البشير الونشريسي، قام (خطيبا فيهم فقال لهم: قال الله تعالى: "ليميز الله الخبيث من الطيب"²، وقال سبحانه وتعالى: (منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون)³. وهذا البشير مطلع على النفس محدث والنبي "ص" يقول: "إن في أمتي محدثين وإن عمر منهم" وقد صحبنا أقوام أطلعه الله تعالى على ما في نفوسهم من النفاق، ولا بد من النظر في أمورهم حتى يتم المراد من العدل في أحكام هذه البلاد⁴، فكان المهدي يأمر البشير بالميز فيخرج المخالفين والمنافقين والخبثاء من بين جماعة الموحدين، حتى (امتاز الخبيث من الطيب ورأى الناس الحق عيانا)⁵، وتلك خطة خطيرة من المهدي يحقق بها هدفين: أولهما تعزيز مهدويته لدى أتباعه، وثانيا التخلص من الشاكين في مهدويته أو من سبهم بالمنافقين، عن طريق استعمال جواسيسه والتقاط السمع.

في إحدى غزواته يروي البيدق ما فعله المهدي في حربه الثانية للمرابطين، وهو في ذلك يتمثل ما قام به صلى الله عليه وسلم، حينما مسك "ص" حفنة من تراب ورمى بها المشركين، وكان حينها يتقدم جيش المرابطين كل من سليمان بن يكلد وابن أبي فراس وعبد الرحمن قاضي السوس، فلما التقى الطرفان (كبر المعصوم فيهم، وقال: لنا الله ينصركم عليهم، ثم قبض قبضة من تراب ورمها في وجوههم، فانهزموا وتركوا الخيل والبغال والذخر والسلاح)⁶، فما دام ابن تومرت على هذا الحال، فلماذا يعد ويجند الجيوش، بل ولماذا انهزم في معركة البحيرة؟.

ويذكر ابن أبي الزرع⁷ أنه كان سفاك للدماء، ولا يتورع في ذلك، ومن ذلك أنه لما كثر القتل في الموحدين تحايل عليهم ليهون عليهم ما أصابهم، بأن (أخذ قوما من أتباعه ودفنهم أحياء وجعل لكل واحد منهم متنفسا في قبره وقال لهم: إذا سألتهم فقولهم قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا من مضاعفت الثواب على جهاد لمتونة وعلو الدرجات التي نلنا بالشهادة فجدوا في جهاد عدوكم، فإن ما دعاكم إليه الإمام المهدي صاحبكم حق، وقال لهم: إذا قتلتم ذلك أخرجتكم وكانت لكم من المنزلة عندي أعلاها وأسناها، وعاهدكم على ذلك ... فأتى إلى موضع المقتلة ليلا مع أصحابه، فدفنهم بين القتلى) ثم رجع إلى أصحابه وهم في غفلة عما يقوم به وما يعده لهم من مكائد.

¹ - ابن القطان، أخبار المهدي، مصدر سابق، ص 146

² - سورة الانفال، الآية 37.

³ - آل عمران، الآية 110.

⁴ - ابن القطان، نفسه، ص ص 146 147

⁵ - المصدر نفسه، 39.

⁶ - البيدق، المصدر السابق، ص 35.

⁷ - ابن أبي الزرع، مصدر سابق، ص ص 182-183.

يظهر أن أشياخ الموحدين انتظروه ذلك اليوم لوقت متأخر من الليل، لأن الرواي يشير إلى "ذهاب أكثر الليل" كما ان ابن تومرت كان يتوقع الشك في مهاديته من طرف الأشياخ، سيما وانه وعدهم النصر على "المشركين" فإذا بجيش الموحدين ينهزم، فقال حينما حضر بينهم: (يا معشر الموحدين أتم حزب الله وأنصار دينه، وأعوان الحق، فجدو في قتال عدوكم، فإنكم على منهاج الحق، وأتم على بصيرة من أمركم وإن كنتم ترتابون فيما أقوله لكم فاذهبوا إلى موضع المعركة واسألوا من قتل اليوم من اخوانكم يخبرونكم بفضل جهادكم وعظيم ثوابكم عليه في الآخرة، فأتى بهم إلى المقتلة، ثم نادى برفع صوته: يا معشر الشهداء خبرونا ما لقيتم من الله عز وجل، فقالوا وجدنا عند الله تعالى ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فلما سمعوا الجواب رجعوا إلى قومهم وقبائلهم فقالوا: قد سمعنا ما أجاب به أخواننا الذين استشهدوا منا وما شهدوا من فضل الله تعالى وجزيل ثوابه، فافتتن بذلك كافة الناس، فأقى فأغلق على اصحابه الذين دفنهم المنافس التي كانت لهم، فماتوا من ساعتهم غما)، لم يكن بوسع ابن تومرت أن يفعل إلا هذا، في سبيل تحقيق مبتغاه وطموحاته الشخصية ولو بوأد الرجال.

لما بلغ ابن تومرت هزيمة الموحدين في معركة البحيرة 524هـ / 1130م، سأل عن عبد المؤمن، فلما وجده حيا، بث العزيمة في نفوس أتباعه بأن قال لهم: ما دام عبد المؤمن فيكم، لم يفقد أحد، ولتأكيد عظيم الأجر الذي ينتظر "شهداء" الموحدين، يذكر ابن القطان أنه لما تفقدوا المعركة بحثا عن البشير، فلم يجده الموحدون ولا الملمثون حيا ولا ميتا، فقال بعض الموحدين في أمره إنه رفع¹.

تروي كتب الموحدين بعض الكرامات للمهدي، منها حديثهم عن نضوب وادي سلا، الذي هو نهر ترفأ فيه السفن الكبار، فبمجرد قدوم المهدي بمعية جيشه، نضب الواد لجوازه بعسكره حتى لم يحتج فيه إلى قنطره ولا قارب²، ومما ذكر في كتاب المجموع أن المهدي لما قربت وفاته سمع هاتف فمأ قاله له:
 فعد عدة الموت إنك مييت
 فأجاب المهدي: متى ذاك خبرني هديت فإني
 فأجابه الهاتف: تبيت ثلاثا بعد عشرين ليلة
 قال فما لبت إلا ستة أيام فمات³

ثانيا: على عهد عبد المؤمن

لم تتوقف المقولات المؤسسة للدولة الموحدية عند ابن تومرت المهدي، وإنما استمرت لتوطيد حكم المؤمن، حيث أورد ابن القطان⁴، مناما لأم عبد المؤمن، قال: رأيت أم عبد المؤمن - وكانت حاملا به - كأن

¹ - ابن القطان، مصدر سابق، ص 165.

² - نفسه، ص 185.

³ - البيهقي، مصدر سابق، ص 43.

⁴ - ليفي بروفنسال، الاسلام في المغرب والأندلس، تر: محمود ومحمد صلاح الدين، مراجعة، لطفي عبد البديع، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية 1999، ص 275.

النار تخرج منها، فتحرق المشرق والمغرب والقبلة والجوف. فقال لها المعبر بتلمسان: لا بد لهذه المرأة من مولود يكون أمره، يأخذ المشرق والمغرب والقبلة والجوف، وتستمر الاسطوغرافيا في تزايد رؤى تعلق أم عبد المؤمن، حينما كانت تحصد الزرع مع زوجها، وهي حامل، فجاءت للفدان، واضطجعت حتى نامت، فأقبل بندان من نمل، فنزلا عليها، فلما ولدت أبنها، أتت الفدان، فلقطت السنبل، وتركت عبدالمؤمن نائماً، فنزل أيضاً عليه النمل أكثر مما كان نزل على أمه، وهو في جوفها، ثم قام النمل عنه، وافترق فرقتين، واحدة للمشرق وأخرى للمغرب. فقال والده علي: الله أكبر، هذا هو الذي قال الفقيه بتلمسان. فلما رجعوا من الفدان، قال الأب لزوجته: احفظيه، فإنه لا بد له من الأمر الذي ذكره الفقيه المفسر.

بل نجد ابن عذارى، يروي مناما لعبد المؤمن، رأى فيه كأنه يأكل مع أمير المسلمين علي بن يوسف في صحفة واحدة، قال: ثم زاد أكله على أكل علي بن يوسف، وأحسست من نفسي شرها إلى الطعام، ولم يزل ذلك بي إلى أن اختطف الحصفه من بين يديه وانفردت بها، فلما انتبه عبد المؤمن سارع إلى شيخه عبد المنعم بن عشير ليفسر له المنام، قال له: يا بني عبد المؤمن، هذه الرؤيا لا ينبغي أن تكون لك، وإنما لرجل ثائر يثور على أمير المسلمين، فيشاركه في بعض بلاده¹. إن تداول هذه الحكايات بين العامة والخاصة واعتقادهم بصحتها، سيمهد الطريق لولاء الموحدين لحكامهم، واعتبار دولتهم من تدبير المولى عز وجل.

لما عزم عبد المؤمن قطع شأفة المترددين في مبايعته، عمد إلى شبل أسد وطائر رباها ودرهما فيما أراد، فانس الأسد به فكان إذا رآه ربح بين يديه، ودرج الطير النطق باللسان العربي، فكان يقول: النصر والتمكين للخليفة عبد المؤمن أمير المسلمين، فلما كمل ذلك من مراده أمر اشياخ الموحدين وقبائلهم أن يحضروا مجلسه، فأمر فضربت له قبة كبيرة بخارج تينمل وفرش له في وسطها، وجعل الطير على عمود القبة وأمر سائس الأسد أن يأتي به إذا غص المجلس بالناس، فيطلقه بينهم.

لما اجتمع الناس قام عبد المؤمن خطيباً، فحمد الله واثنى عليه وصلى على النبي "ص" وترضى على الصحابة والإمام المهدي، وترحم عليه، واعلمهم بموته، ونعاه لهم وعزاهم فيه، فكثرت البكاء منهم وارتفع الضجيج فقال لهم: (إن الإمام قد سار إلى ما عند الله ووجد خيراً مما ترك، وانظروا فيمن تولونه أموركم، فبينما اشياخ الموحدين في تلك الحال، وإذا بسائس الأسد قد أطلقه ومعلم الطير قد صفر له، فقال الطير ذلك بلسان فصيح، النصر والفتح والتمكين لسيدنا الخليفة عبد المؤمن أمير المسلمين، وأما الأسد فإنه لما أطلقه سائسه ورأى الناس زار وضرب بذنبه وكثر عن أنيابه ففر الناس منه يمينا وشمالاً، وبقي عبد المؤمن قاعدا لم يتحرك، فلما بصر به الأسد بصص بين يديه، فجر عبد المؤمن يده عليه وسكنه، فلما رأى الموحدون فعل الأسد وسمعوا كلام الطير، اتفقوا على تقديم عبد المؤمن وقالوا: ما على هذا من مزيد)².

¹ - عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، ص 138.

² - ابن ابي الزرع، مصدر سابق، ص 184-185.

لا نستغرب مثل هذه "الشطحات" سيما إذا نظرنا إلى المجال الذي ظهرت فيه وهي منطقة السوس المعروفة بتعلقها بالحكايات الغيبية، فاستنجد عبد المؤمن بالاستطوغرافيا لتكون أرضية تجند له العامة في إطار مشروع الدولة، ولا نعدم الرأي إذا قلنا أن عبد المؤمن استلهم من ذلك، ودبر الدسائس وأعادة إنتاج "الرؤيا" ليتمكن لحكمه والسادة من بعده.

المحاضرة الخامسة:

رجل الدولة عبد المؤمن بن علي الكومي

أولاً: نسبه ونشأته:

ثانياً: الحاضنة التومرتية

ثالثاً: رجل الدولة

رابعاً: استراتيجية عبد المؤمن لإنقاذ الموحدين

أ- الاتجاه العسكري الاقليمي:

ب- تغيير التركيبة المجتمعية للبلاد:

ت- ج- ولاية العهد:

ث- د- مواجهة التمردات:

رجل الدولة عبد المؤمن بن علي الكومي

أولاً: نسبه ونشأته:

تتباين المصادر في نسب عبد المؤمن، بين المصادر الموحدية والمتأخرة هذا التباين له مايرره في إطار تكريس الولاء للخليفة عبد المؤمن بن علي، ففي الوقت الذي يتحدث فيه البيدق عن النسب الشريف لعبد المؤمن عن طريق جدته كونه في قوله: (هو أبو محمد عبد المؤمن بن علي بن علوي بن يعلى بن حسين بن كونة بنت إدريس بن إدريس بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب رضي الله عنه)¹، ومنه يقول ابن القطان: (والخليفة قسيم المهدي في النسب الكريم، وذلك أن بعض جداته تنتسب إلى فاطمة بنت الرسول "ص")² فإنه عن طريق أجداده ينتهي إلى قيس بن عيلان فـ (هو عبد المؤمن بن علي بن علوي بن يعلى بن علي بن حسين بن نصر بن الأمير أبي نصر بن مقاتل بن كومي)³.

ورد في الأثر أنه كان يقول: إنما نحن من قيس بن عيلان بن مضر بن نزار، ولكومية علينا حق الولادة، والمنشأ فيهم، وهم أخوالي⁴، وكان الخطباء إذا دعوا له بعد ابن تومرت، قالوا: قسيه في النسب الكريم⁵.

بينما ابن أبي الزرع ينقل من خط عبد الواحد، حفيد عبد المؤمن، أنه أبو محمد عبد المؤمن بن علي بن يعلا بن مروان بن نصر بن عامر، حتى ينتهي نسبه إلى مادغيس بن بر، فهو من قبيلة كومية الزناتية بهنين والده علي كان فخاراً⁶. لا شك أن عبد المؤمن ساير ابن تومرت في دعوته فكيف لا يسايره في "النسب الكريم"، فالسيادة على البربر يدعمها هذا النسب لحبهم الشديد لآل بيت الرسول "ص"، فكل مدعي في بلاد المغرب يتدثر بهذا "النسب الكريم" ليحظى بالقبول المطلوب.

إن الاختلاف الحاصل في سنة ولادة عبد المؤمن، عمقته عدم إيراد الروايات الموحدية لمؤشرات حول سنة ولادته، إذ يذكر عبد الواحد المراكشي⁷

¹ - البيدق، الانساب في معرفة الأصحاب، ص 13.

² - نفسه، ص 15

³ - نفسه، ص 21.

⁴ - الذهبي، مصدر سابق، 366/20.

⁵ - محمد علي الصلابي، دولة الموحدين، مكتبة الإيمان، المنصورة 2004، ص 103

⁶ - ابن أبي الزرع، مصدر سابق، ص 183.

⁷ - عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، ص 148.

والذهبي في السير أنه ولد عام 487 هـ / 1094م¹، وكانت وفاته في شهر جادى الآخرة سنة 558هـ / 1163م، وقيل أنه ولد سنة 500هـ / 1107م وقيل سنة 490هـ / 1097م، يتضح من ذلك أنه لما تقلد أمر الموحدين كان يقارب الأربعين من عمره، وصحب ابن تومرت حوالي عشر سنوات، أي منذ أن كان في عمره ثلاثين سنة. وحسب ابن خلدون أن عبد المؤمن من بيت عابد أحد بيوتات كومية وأشرفهم²، وهذا ما يوحي أنه تطلّب منذ صغره ولزم المساجد، سيما مسجد العباد بتلمسان.

ثانيا: الحاضنة التومرتية:

إن التقارب المصمودي الزناتي ممثلا في شخص ابن تومرت وعبد المؤمن، يدفعنا إلى طرح أكثر من سؤال على أساس غياب التوافقات المجتمعية- القبيلية والفكرية بين الرجلين من جهة، فضلا عن الشخصية والنفسية لأن ابن تومرت عرف بأسلوبه الثوري وبخفى في نفسيته مشروع المهدوية، بينما عبد المؤمن لم يكن تائرا بل مدرسا للصبيان، ونفسيته طموحة لطلب العلم لا غير.

وبعيدا عما صورته المصادر الموحدية عن الطابع الأسطوري في ذلك اللقاء بين ابن تومرت وعبد المؤمن، فإن تحليلنا يوقفنا على اتجاه يكون ابن تومرت قد رسمه لمستقبل دعوته، يتمثل في إدماج وتقديم زناتة المغرب الأوسط لقيادة المشروع، وإلا كيف نفسر المكاة التي حظي بها عبد المؤمن، الطالب الجديد في وسط الطلبة المحيطين بابن تومرت وهو يومئذ بملاحة، فهناك ظروف موضوعية أهلت عبد المؤمن الطالب النبيه لأن يجعل البيدق "ظل ابن تومرت" يحمل السراج ليطلع ابن تومرت الطالب عبد المؤمن على ما ورد في "كتاب الجفر".

اعتقد أن ابن تومرت هم بتقديم زناتة لاعتبارات تتعلق بالرياسة والغلبة، ونزوله بتلمسان من باب الاطلاع عن كئيب على مدى ولائها للسلطة القائمة، كما أن المجال المصمودي أظهر الولاء للمرابطين واحتضن عاصمتهم مراكش، لذلك من الصعوبة نجاح المشروع التومرتي من محيط العاصمة- المركز، فضلا عن الصعوبات التي طرحها المجال المصمودي وقبائله في سياق دعوة ابن تومرت.

ظل ابن تومرت ما يزيد عن العشر سنوات في إطاره القبلي ولم يخرج منه، وما إن تقلد عبد المؤمن زمام الدعوة بادر بضم أجزاء من المغرب الأوسط لتلمسان ووهران، وبجنودهما دخل المغرب الأقصى ومراكش. لهذا ما كان لمشروع ابن تومرت السياسي أن ينجح في إطاره المصمودي لولا التحول الاستراتيجي الذي قام به عبد المؤمن³، فإذا كان ابن تومرت رمى ثقاه المذهبي بالمغرب الأقصى، فإن عبد المؤمن نجح في حمل طموحه السياسي للمغرب الأوسط، ليضمه إليه بعد إستقوائه بإرث ابن تومرت المذهبي.

¹ - محمد علي الصلابي، مرجع سابق، ص 103

² - ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع 2000، 174/6.

³ - وهو في ذلك يماثل ما قام به عبد الله بن ياسين، عندما مدد مشروعه السياسي من موطن صنهاجة بالصحراء، لمواطن قبيلته جزولة في المغرب الأقصى،

ثالثاً: رجل الدولة:

كما أسلفنا لم يكن لعبد المؤمن الشاب أي طموح سياسي، لكن مرحلة التربية التومرتية جعلت منه رجل دولة، وسعى ليكون صورة حقيقة لابن تومرت، فأعدّه الإعداد اللازم للقيادة والزعامة والرياسة، مستثمراً في ذلك مؤهلاته العلمية والفكرية وحتى العصبية.

تتابعت المقولات والأوصاف التي أطلقها المهدي في حق عبد المؤمن، والتي يبدو أنها قوت عزيمته في طلب السياسة والرفعة والجاه، مثل قوله "طوبى لمن عرفه وويل لمن أنكره" "سراج الموحدين" "أتم المؤمنين وهذا أميركم" "مد عاش عبد المؤمن بقي الأمر"¹، "صاحبكم هذا غلاب الدول" كما ساهمت تلك المقولات في تبوء عبد المؤمن مكانة متقدمة بين الأصحاب.

يتضح مما سبق أن عبد المؤمن احتل الرقم الثاني في الدعوة الموحدية بعد ابن تومرت، وطبيعياً سيكون خليفته في الدعوة، وإن كثر الجدل بين الروايات في بيعته، هل كانت في حياة ابن تومرت أم بعد وفاته؟ وفي أي سنة تمت؟ وعليه سنورد تلك الروايات من باب الإطلاع لأن النتيجة محسومة لصالح عبد المؤمن منذ لقاء ملالة.

ما جاء عند ابن القطان في مؤلفه لا يبدو أن يكون إشارة إلى بيعته، حيث جعلها في أبناء سنة 529هـ قوله: (في هذه السنة كان الإعلان بموت المهدي والإعلان ببيعة سيدنا ومولانا الخليفة أمير المؤمنين)² وكانت صيغة البيعة (نبايعك على ما بايعنا الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه، فمد يده فبايعوه واتصلت البيعة ثلاثة أيام)³، بينما يورد قصة البيعة بعد عودته لتملأ من غزوة جزولة، فجمع إليه الناس ووعظهم (ثم قال لهم: المهدي قد توفي فبكا الناس ثم قال لهم اسكتوا فسكتوا، فقال أبو إبراهيم وعمر أصناك وعبد الرحمن بن زكو ومحمد بن محمد لعبد المؤمن: أمدد يمينك نبايعك البيعة التي عقدناها مع الإمام المهدي فمد يده وبايعوه، ثم تبعهم سائر الناس)⁴.

تباينت روايات المتأخرين في مسألة البيعة، فهي لا تنفي ولا تثبت الوصية إرضاء لبني عبد المؤمن كما يقول ابن أبي الزرع⁵، ويمكن أن نخلص منها إلى ما يلي:

➤ تاريخ البيعة الخاصة كانت سنة 524هـ / 1130م والعامّة كانت 526هـ / 1132م⁶، وهناك من يؤكد أن البيعة كانت 524هـ⁷. بينما ابن خلدون يجعل عام 522هـ سنة وفاة المهدي والبيعة 525هـ /

¹ - مجهول، الحلل الموشية، ص 95.

² - ابن القطان، مصدر سابق، ص 236.

³ - نفسه، ص 236.

⁴ - ابن تومرت، مصدر سابق، ص 45.

⁵ - ابن أبي الزرع، مصدر سابق، ص 119.

⁶ - نفسه، ص 21.

⁷ - الحلل الموشية، ص 107.

1131م على أساس أنهم كتموا وفاته ثلاث سنين¹. ويورد ابن القطان في "نظم الجمان" أنه مات 524هـ / 1130م، والبيعة تمت عام 529هـ / 1135م².

➤ وهناك من يرى أنه استخلف، مثل عبد الواحد المراكشي، حين تحدث عن الاجتماع الذي عقده ابن تومرت أياما قليلة قبل موته، فقال: (وقد اخترنا لكم رجلا منكم وجعلناه أميرا عليكم... وهذا المشار إليه هو عبد المؤمن)³، وفي رواية أخرى له يفهم منها أنه لم يستخلف (وكان الذين سعوا في تقديمه وهيتوا ذلك له ثلاثة، وهم من أهل الجماعة)⁴، ورواية ابن خلكان⁵ هي صدى لرواية صاحب نظم الجمان⁶، وينفرد الناصري بقوله: (لما فرغ الموحدون من دفن المهدي تشوق كل واحد من العشرة إلى خلافته بعده، وكانوا قبائل شتى، وأحبت كل قبيلة أن يكون الخليفة منها، فتنافسوا في ذلك، فاجتمع العشرة والخمسون وتأمروا فيما بينهم، واتفقوا على خلافة عبد المؤمن، لكونه كان غريبا بين أظهرهم)⁷.

يستنتج من تلك الروايات أن ابن تومرت أعطى مؤشرات صريحة لاستخلاف عبد المؤمن، وإن لم يعتقد له البيعة في حياته، بينما البيعة كانت بيعتان بيعة خاصة لحظة وفاة المهدي من طرف أهل الجماعة، وبيعة عامة بعد ذلك. ويقدم لنا أشباح رؤية مقبولة تتفق مع طرحنا في تقديم عبد المؤمن، حينما قال: (اجتمع الأئمة الأربعة الباقون من العشرة لانتخاب زعيم جديد، فاجتمعت كلمتهم على أنه ليس أجدر بهذا المنصب من عبد المؤمن أحد العشرة، فقد أصطفاه المهدي كأول تلاميذ وأخلصهم واتخذه وزيره، ونذبه للصلاة مكانه، وعهد إليه بأمر دفنه، وكثيرا ما صرح بأنه ما دام عبد المؤمن على قيد الحياة، فلا خوف على سلطان الوحدين، وقد أبدى عبد المؤمن في الحرب أيما براعة، وكان هو المنقذ عند المحنة، وهو الظافر دائما كلما قاد الجيش)⁸.

رابعا: استراتيجية عبد المؤمن لإيقاد الموحدين

أ- الاتجاه العسكري الإقليمي:

توفي ابن تومرت وأكثر بلاد السوس والمغرب خارج سلطة الموحدين، كما واجهت الدعوة تحدي خطير من طرف المرابطين خاصة بعد هزيمة البحيرة، لذلك بدأ عبد المؤمن أخليفة في تأمين المحيط الذي انطلقت منه الدعوة الموحدية بإخضاع قبائل السوس عام 529هـ / 1135م، وفي العام الموالي ضم تادلا⁹.

¹- ابن خلدون، العبر، 230/6.

²- ابن القطان، مصدر سابق، ص 204.

³- عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، ص 147.

⁴- نفسه، ص 146.

⁵- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت (ب ت)، 239/3.

⁶- ابن القطان، مصدر سابق، ص 204.

⁷- الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليقك جعفري الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب،

الدار البيضاء 1954 101/2

⁸- أشباح، مرجع سابق، ص 195

⁹- ابن القطان، مصدر سابق، ص 250.

مع نهاية الثلاثينيات من القرن السادس الهجري (12م)، بدأ الخليفة في تجسيد استراتيجية ضم الجزء الغربي من المغرب الأوسط، حيث لم تكدهل سنة 539هـ / 1144م حتى كان الخليفة عبد المؤمن نازلا بجبال تلمسان التي اجتمعت بها عساكر سجلماسة وبجاية والأندلس¹ تحت قيادة أبو بكر بن المزدلي المتوفى²، تمكن هذا الأخير من صد هجوم عبد المؤمن من جهة العباد، فأثر عبد المؤمن تركها وولى على الجيش المحاصر لتلمسان الأمير محمد الملقب بـ"السيوري"، بينما وجه عبد المؤمن في شهر شعبان من عام 539هـ / 1144م، أبا حفص بن يحيى الهنتاتي مع بعض الزناتيين إلى جهة وهران وترك جزء من عسكره محاصرا لتلمسان، فتبعه تاشفين بجيشه وتحصن بها مع المزدلي، وقد اجتمع لعبد المؤمن "ما لا يحصى وفي ذلك اليوم ظهر أمر عبد المؤمن وكثر جمعه"³ فلما اضرمت النار في أبواب السور خرج تاشفين على فرسه "ريحانة" فإرا فسقط به فرسه في حافة عظيمة فمات لحينه⁴، وابنه إبراهيم ولي عهده يومئذ بمراكش⁵.

تسامع أهل تلمسان وتاجرات ما حصل للملثمين بوهران، ففر من كان فيها من لمتونة لفاس، ولما قرب عبد المؤمن من تلمسان خرج إليه الطلبة والأعيان والصبيان يرغبون في العفو عنهم إلا أن الموحدين لم يراعوا ذلك وقتلوهم عند واد تافنة، ودخل عبد المؤمن تلمسان⁶ مزهوا بنشوة الانتصار فأقام بها سبعة أشهر وولى عليها سليمان بن محمد بن وانودين الهنتاتي⁷، وبذلك انتهت المرحلة الأولى من ضم المغرب الأوسط للسلطة الموحدية والتي رغم قصر مدتها إلا أنها حققت نتائج مبهرة، بضم كل من وهران وتلمسان وما والاها، فضلا عن مقتل أمير المرابطين تاشفين بن علي.

عاد ابن تومرت للمغرب الأقصى من جهة فاس عام 540هـ / 1145م متتبعا لفلول المرابطين، إلا أنها استعصت عليه ولم يدخلها نهائيا إلا بعد عشر سنوات (شهر ذي القعدة عام 450هـ) على إثر "خيانة" الجياني الذي كانت له مداخلة مع عبد المؤمن، ففتح له المدينة خفية من باب الفتوح وقادها لأبي إسحاق بن جامع⁸

إن الهيبة التي كسبها عبد المؤمن وجيشه، مع انهزام وتدمير ما بقي من جيش المرابطين، دفعت القوى المناوئة بالمغرب الأقصى إلى التسارع في طلب الأمان من عبد المؤمن، مثل سبتة وسلا ومكناسة، ومنها أخذ الحركة على مراكش عاصمة المرابطين⁹.

¹- ابن عذاري، مصدر سابق، 19 / 5

²- نفسه، 16 / 5.

³- الحلل الموشية ص 98 .

⁴- ابن عذاري، مصدر سابق، 21/5.

⁵- لما بوبع بالإمارة 539هـ، ثار عليه عمه اسحاق بن علي وادعى لنفسه الأمر . ينظر الحلل الموشية، ص 100.

⁶- لم تذكر المصادر أن عبد المؤمن استباح المدينة لجنوده، عكس ما قام به جيشه في مدينة مراكش.

⁷- ابن عذاري، مصدر سابق، 23/5.

⁸- نفسه 24/5.

⁹- الحلل الموشية، ص 102.

يظهر للدارس أن مسير عبد المؤمن من تملل إلى وهران وتلمسان لضمها متحاشيا في ذلك فاس ومراكش، يدل على حسن التدبير العسكري، حيث كان ضم تلك الجهات فاتحة لدخول المغرب بجيش عرمرم، وأصبحت حينها مراكش المرابطية جزيرة محاطة بأمواج من الموحدون تتلطف للإيقاض عليها. تسابقت الطلائع للإيقاض إلى عساكر عبد المؤمن النازلة بجبل إيجليز لحصار مراكش في محرم 541هـ / 1146م، والتي طال حصارها ما يزيد عن تسعة أشهر، ف (عجزت عساكر اللمتونيين عن الدفاع والامتناع بضعف العدد والعدة وكثرة الضيق والشدة)¹، في المقابل تمكنت قوات الموحدون من اجتياز سور المدينة فدخلوها عنوة، فألقي القبض على أعيان الملمثين والأصاغر من أبناءهم سيما أميرهم إسحاق صاحب الستة عشر عاما الذي لم يجد بدا من طلب العفو بين يدي عبد المؤمن قائلا: (مالي في الرأي شيء فيقول له غلامه: أصمت، أرأيت ملكا يتضرع لملك غيره، فأراد عبد المؤمن تركه وترك الأصاغر منهم فاغتاز ابن وجاج وصاح بالموحدون وقال لهم: ارتد عبد المؤمن علينا، لأنه يريد أن يربي فراخ السبوعة إلينا، فغضب عبد المؤمن لقوله، وقام من مجلسه فتبعه الموحدون إلا أبا الحسن بن واجاج وأبا حفص، فأخذ واجاج إسحاق وضرب عنقه)²، وأستبيحت مراكش لثلاثة أيام إلى أن أعلن عبد المؤمن الأمان في المدينة. وبعدها وفدت عليه جميع قبائل المصامدة واستوثق أمر المغرب لعبد المؤمن بن علي

بعد إخضاع العاصمة المرابطية 541هـ / 1146م، قضى عبد المؤمن حوالي ست سنوات في القضاء على الفتن والاهتمام بالأندلس، رأى عبد المؤمن أن دولته لا تكتمل هيبتها إلا بضم كل المغرب الأوسط والأدنى اللذان اعتبرهما العمق الاستراتيجي لعاصمته.

يجمع ابن عذارى³ وابن أبي الزرع⁴، أن عبد المؤمن تحرك إلى بجاية عام 547هـ، ولانجاح خطته كتب إلى عامله على تلمسان بمنع المسافرين والتجار من التحرك إلى إفريقية برا وبحرا، حتى لا يصل خبر مسيره إلى صاحبها العزيز بالله يحيى بن ناصر الصنهاجي من ملوك بني حماد، وهرب عاملهم القائم بن يحيى بن عبد العزيز بن المنصور على الجزائر إلى قسنطينة ودخلها الموحدون صلحا⁵ على إثر اتفاق بين عبد المؤمن وابن حمدون الذي فتح له باب المدينة، فطلب الأمان ودخل في طاعته (وانتقل بأثقاله وأحمال ماله وجميع أهله وعياله مع الحملة إلى مراكش فأعطاه الديار والأموال)⁶.

غزا الموحدون إفريقية في جيش من المصامدة والعرب وغيرهم، بقيادة عبد الله بن عبد المؤمن إلا أنه أنهزم ورجع إلى بجاية، إلى أن فتحت نهائيا على يد عبد المؤمن عام 553هـ / 1158م ثم المهديّة التي دخلها النصارى عام 543هـ / 1148م، ثم افتتحها عبد المؤمن عام 555هـ / 1160م (بعد أن آمن النصارى الذين هم

¹- ابن عذاري، مصدر سابق، 27/5.

²- نفسه، 29/5. ابن أبي الزرع، أن عبد المؤمن هو من قتل إسحاق بن علي، ص 190.

³- ابن عذاري، مصدر سابق، 47/5.

⁴- ابن أبي الزرع، مصدر سابق، ص 194.

⁵- نفس المصدر، ص 193

⁶- ابن عذاري، مصدر سابق، 46/5.

بها على أنفسهم على ان يخرجوا له عن البلد ويلحقوا بصقلية بلدهم¹. وكان قبلها قد ملكوا مدينة مليانة سنة 544هـ²، وفي خضم هذه الانتصارات، أظهر عرب بني سليم والأثنج وزغبة ورياح، المتوطنين بناحية قابس مهاجمة فلول جيش الموحدين، فجرد إليهم الخليفة عسكرياً وأنزل بهم الهزيمة وأدخلهم في طاعته، ولم يكن الخليفة خلال كل هذا (بارا بمن انضوى إليه عارفاً بأقدار الناس، مكرماً لأعيانهم وأهل البيوتات منهم، عالماً بمقادير العلماء، ينزل الناس على قدر منازلهم ورتبهم، وربي الحفاظ بحفظ كتاب الموطأ وهو كتاب أعز ما يطلب)³. كما تمكن قواده من ضم طرابلس الغرب وبلاد الجريد (وتم لعبد المؤمن ملك إفريقية كلها منتظماً إلى مملكة المغرب، فملك في حياته من طرابلس المغرب إلى سوس الأقصى من بلاد المصامدة وأكثر جزيرة الأندلس)⁴. وذلك سابقة في تاريخ البربر في الفترة الوسيطية.

ب- تغيير التركيبة المجتمعية للبلاط:

إن التطورات السياسية التي عرفتها جبال الأطلس خلال العصر الوسيط سيما مع القرن 5هـ، شكلت سرير الحكم في بلاد المغرب خاصة مع بناء مدينة مراكش من طرف القبائل الصنهاجية الصحراوية، مما أحدث هزة في التركيبة المجتمعية لهذا الإقليم-المغرب الأقصى خلال القرنين 5 و6 الهجريين. شهد القرن الخامس الهجري انتشاراً للعنصر الصنهاجي امتد تواجهه من نول لمطة إلى بجاية لمشاركته في بناء الدولة المرابطية وصار له مكانة مميزة في المجال المغربي بسبب انتائه للطبقة الحاكمة، وتشير الأحداث التاريخية أن مقدمة الصنهاجيين نزلت المغرب مع عبد الله بن ياسين وتتبع الاستقدمات من الصحراء، سيما في عهد يوسف بن تاشفين، إذ يؤكد ابن السكك ذلك بقوله: (وبعث -أي يوسف بن تاشفين- سنة 470هـ / 1078م إلى الصحراء للمتونة ومسوفة وجدالة وغيرهم يعلمهم بما فتح الله عليه من ملك المغرب وطاعة أهله ويؤكد عليهم في القدوم فوفد إليه منهم جموع كثيرة ولآهم العمال وصرف أعيانهم في مهات الشغال فآكتسبوا الأموال وملكوا رقاب الرجال وكثروا بكل مكان وساعدهم الوقت والزمان وكثرت جموعهم وتوافرت عساكرهم)⁵.

مع سقوط دولة المرابطين نجد قبيلة أخرى تتقلد الصدارة في بلاد المغرب وهي قبيلة مسمودة التي يعتبر المغرب الأقصى موطنها الأصلي، من أهل درن وبرغواطة⁶، فحد بلادهم عرضاً من نهر أم ربيع إلى الصحراء التي تسكنها لمتونة ومسوفة فهذا حد بلاد المصامدة، وحدها طولاً من الجبل المعروف بدرن - جبال الأطلس- إلى المحيط. أما عن مكاتهم يقول ابن خلدون: (لم يزل أمر هؤلاء المصامدة بجبال درن عظيماً، وجماعتهم موفورة وبأسهم قويا ... إلى أن أظلتهم دولة لمتونة، فكان أمرهم فيها مستفحلاً وشانهم على أهل

¹ - عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق 169

² - ابن عذاري، المصدر السابق، 191/5.

³ - الحلل الموشية، ص ص 113 114.

⁴ - عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، ص 169.

⁵ - الحلل الموشية، ص 20

⁶ - ابن خلدون، مصدر سابق، 176/6.

السلطان والدولة مها حتى اختطوا مدينة مراكش أنزلهم جوار مواطنهم من درن ليميزوا عمن سواهم ويدللو من صعايم¹

نجد بعد ذلك عناصر أخرى فرض تواجدها وقوتها رغبة في نفوس القادة استقدامهم هؤلاء هم العرب ممثلة في الهلالية - من باب إطلاق الجزء على الكل - وهذه القبائل هي بنوسليم وبنو هلال وأحلافهم من جشم والخلط والمقل، هجرهم عبد المؤمن من إفريقية لعاصمة ملكه، وبذلك حسب ابن خلدون حتى يتخلص الموحدون من ثوراتهم والثانية استخدامهم في عمليات الجهاد بالأندلس ويوضح ذلك ما نصح به عبد المؤمن أبناءه².

وبذلك يرى محمد المنوني أن دخول العرب المغرب الأقصى كان لعاملين³:

العامل الأول: انهزائمهم في المعارك التي خاضوها ضد الموحدون وما ترتب على ذلك من ترحيلهم إلى المغرب الأقصى، وكانت أولى هزائمهم بعد إستيلاء الموحدون على بجاية 1152/547م، حيث عمل عبد المؤمن الخليفة على نقل نسائهم وأبنائهم إلى مراكش.

وبعد الهزيمة الثانية عام 1160/555م نقل كذلك مجموعة كبيرة من النساء والأولاد إلى مراكش⁴ وعاملهم بالحسن، مما دفع الكثير من العرب الفارين للحاق بأسرهم، ونقل المنصور أعدادا هائلة منهم إلى سريبر حكمه بعد ثورة بني غانية بقفصة 1186/582م كما انظم عدد كبير من بني هلال إلى الناصر الموحي في قتال بني غانية

والعامل الثاني: استدعاء خلفاء الموحدون للعرب للمشاركة في عمليات العسكرية، حيث استنفرهم عبد المؤمن لما عزم العبور للأندلس، وخاطب يوسف بن عبد المؤمن العرب بإفريقية يستدعيهم إلى الغزو ويحرضهم لذلك.

والعامل الثالث في تقديرنا، يعود إلى ما تعرض له عبد المؤمن ودولته من مؤامرات داخلية، دفعت به إلى الاستقواء على العناصر المصمودية بالعناصر العربية والكومية، سيما وأنه كان سيقدم على توريث الحكم لبنيه.

خلال ذلك وردت على الخليفة قبيلة كومية عام 1162/557م، في جيش عظيم من 40 ألف فارس، والسبب في ذلك أنه شعر بضرورة جلب قبيلته؛ لحمايته من المؤامرات المتكررة، فأنفذ الأموال إلى زعماء قبيلته سرا، وأمرهم وأن يحملوا معهم كل من بلغ الحلم ويأتونه ركبانا في أحسن زي وأكمل عدة، وفي ذلك يقول صاحب روض القرطاس: (فتشوش المغرب بقدمهم وتقول الناس الأقاويل ... فسمع الموحدون به فارتاعوا منهم إقبالهم... فأمر الشيخ أبا حفص أن يخرج إليهم في جماعة من الموحدون... فقال لهم أسلم أتم أم حرب؟

¹- نفس المصدر، 300/6 301

²- نفسه، 351/6

³- المنوني، مرجع سابق، ص 310.

⁴- ابن أبي الزرع، مصدر سابق، ص 199.

فقالوا بل نحن سلم، نحن قبيل أمير المؤمنين نحن كومية الزناتيون قصدنا زيارته والتسليم عليه)¹. ففرح بهم عبدالمؤمن، فرحاً عظيماً، وأنزلهم في مراكزهم، وأعطاهم الدور، ووزع عليهم البساتين، وجعل منهم حرسه الخاص، الذي يقف بين يديه في جلوسه، ويحيطوا به في تسيارته، وبذلك أطمأن على نفسه، وعلى حكم أبنائه من بعده.

ج- ولاية العهد:

لما تمكن عبد المؤمن من الملك، أراد أن يكون الملك في بنيه، ولتحقيق هذا المبتغى الصعب في ظل ظروف قيام الدولة الموحدية، فضلاً عن مكانة عمر الهنتاتي، لذلك عمل على ثلاث جهات:

1- استقدام القبائل العربية والصنهاجية²، ومطالبتهم سرا بطلب ولاية العهد لابنه أبي عبد الله محمد، ولقد أورد صاحب نهاية الإرب³ رواية في هذا الشأن، تجمع على أن عبد المؤمن جمع أمراء العرب ووضع عليهم من يردد (نريد أن تجعل لنا ولي عهد من ولدك يرجع الناس إليه من بعدك)، وفي ذات الوقت يظهر عبد المؤمن تمنعاً عن ذلك إكراماً لأبي حفص عمر الهنتاتي، الذي لم يجد بداً من خلع نفسه (واتفقت الكلمة من جميعهم أن في ذلك من تجديد أمر الإمام المهدي -رضي الله عنه- وتقويته ... ما لا يجوز تأخيره... وان فيه من ابقاء الأمر في نصابه وإتيان الحق من ابوابه وقطع كل منافق مراتب عن أسباب نفاقه وارتيابه، والنظر فيما يجمع كلمة الموحدين ويضم شمل المؤمنين)⁴

2- ولما حاولت قبيلة هرغة اغتياله وهو عائد من غزو تونس 555هـ/1160م، اضطر لاستجلاب قبيلته كومية وأسكنها مراكز عام 556هـ/1161م، بعث برسالة إلى الطلبة والأشياخ والأعيان والكافة بسبنة مبينا لهم أن بيعة ولي العهد أمر اراده الله تعالى (وقد تقدم إليكم ما كان من إجماع الموحدين وأصفيائهم على عقد هذه البيعة المجددة والتزام شروطها المذكورة، وان ذلك لم يكن له عندنا قصد متقدم ولا عهد متوهم، لكنه أمر اراده الله فأتمه... وكان من هذه العشائر الهلالية والوفود المشرقية إياها الميمون ورأت أن الذي أملت في معنى الاختصاص بمحمد -وفقه الله- قد تانى في درج العموم)⁵، ولم يكن من أمر شيوخ الموحدين وطلبته وعماله إلا أن بينوا فيه منافع هذا الإجراء، حفاظاً على مصالح الموحدين.

حرص الخلفاء من بعده أن يولوا عهدهم لأبنائهم في حياتهم، بعد استشارة أشياخ الموحدين والعرب⁶، وكانت ولاية العهد عندهم تخضع لشرطين هما الكفاءة والصلاح، وبناء على ذلك أقصى الخليفة عبد المؤمن ابنه محمد من ولاية العهد وتعيين أخيه يوسف.

¹ - نفس المصدر، ص 202.

² - المقصود صنهاجة الشمال.

³ - النويري، مصدر سابق، ص 169.

⁴ - رسائل موحدية، العزاوي، ص 59

⁵ - مجموع رسائل، ليفي، ص 63 رسالة رقم 14

⁶ - نفس المصدر، ص 161-162.

د- مواجهة التمردات:

إن أولى التمردات التي واجهها الخليفة عبد المؤمن الكومي، كانت من بلاد السوس في نهاية سنة 541هـ، بقيادة محمد بن عبد الله بن هود ويطلق عليه "الداعي الماسي" نسبة إلى رباط ماسة موطن دعوته، و"الداعي" لأنه ادعى المهدي، ويتفق كل من صاحب روض القرطاس و البيان المغرب والحلل الموشية¹ في الإشارة إلى أن "جميع" قبائل المغرب بايعته بما في ذلك بلاد تامسنا وبلاد المصامدة، ولم يبق بيد الخليفة إلا مراكش وفاس.

استمرت هذه الحركة ردحا من الزمن وشغلت عبد المؤمن، لدرجة أن وفد أهل الأندلس ظل ينتظر حضوره بمراكش لحوالي السنة وهو في مواجهة هذا الداعي، إلى أن تمكن أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي من هزم جيشة وقتله في ذي الحجة من عام 542هـ / 1147م.

إن هذه المحاولة من بلاد السوس ترسم لنا نفس الخط الذي اعتمده ابن تومرت في تأليف وتأليب القبائل على المرابطين، والذي يحمل في طياته بعدا إقصائيا ليس لعبد المؤمن وحده، بقدر ما هو لقبائل المغرب الأوسط التي دخلت مراكش بمعية خليفة الموحدين، ويكون هذا التوجه قد اخترق عند أشياخ الموحدين أنفسهم عندما قتلوا أخا للخليفة لعبد المؤمن، لما جاء لزيارته، لأنه جلس في المكان المخصص لطبقة العشرة "أهل الجماعة"، ولما غضب عبد المؤمن، وأراد القصاص من قاتل أخيه، وقف الموحدون في وجهه، ومنعوه من ذلك، وقالوا له: ألم يقل المهدي: بأن الجماعة وصبيانهم، عبيدهم كل من في الدنيا. فصمت الخليفة عند ذلك.

يظهر أن حمى الثورة استشرت بالمغرب، وأخذ كل داعي يتشوف للسلطة والملك، سيما بعد الانتصارات التي حققها عبد المؤمن، ففي عام 543هـ دخل عبد المؤمن سجلماسة وأمن أهلها وغزا برغواطة، كما ثار أهل سبتة على الموحدين بإيعاز من قاضيم عياض، الذي أعلن بيعته لابن غانية بالأندلس، ووضعوا أيديهم بيد البرغواطيين، وقاتلوا عبد المؤمن إلى أن انتصر عليهم. ولم تكد تمر سنة 543هـ حتى ملك الموحدون قرطبة وغرناطة.

وفي السنة 548هـ/1153م، وفد إليه كبراء العرب مع بعض أمرائهم من إفريقية (فلما وصل سلا، انعقدت البيعة لابنه محمد على أوفى شروطها وربوطها... ووفدت الشعراء من الأندلس للتهنئة على هذه البيعة)²، ويبدو أن الخليفة استشعر ردة فعل قرابة المهدي فأخذ يتألف أخوته منها عبد العزيز وعيسى، إلا أن الغيرة وشعورها بأنها صاحبا هذا الملك دفعها إلى المطالبة به بالثورة، وفي ذلك يقول ابن عذارى: (لم يزل من وفاة المهدي يتألف -أخوي المهدي- ويحسن إليهما وإلى يصلاتن معها بالإحسان... وهذا يصلاتن يغيرهما ... ويجعل نقض العهد وخلع الطاعة غداء بجوارحهما)³، فأعلنوا العصيان بفاس ووصلوا مراكش، وقتلوا واليها

¹- ابن أبي الزرع، مصدر سابق، ص190، البيان المغرب 31/5. الحلل الموشية، ص 110.

²- ابن عذارى، مصدر سابق، 49/5

³- نفسه، 47/5. يجعل ابن أبي الزرع البيعة لمحمد سنة 549هـ ص 194.

عمر بن تفرّاكين، وكان ابن عطية في طريقه إليهم فقبض عليهم وقتلا وصلبا في ذي القعدة عام 548هـ/1153م، سيما أن أخوا المهدي عيسى وعبد العزيز كانا قد أخذوا ابنتين من بنات أمير تلمسان يحيى بن اسحاق المسوفي وزوجته زينب، وكان يحيى قد "وحد" وهاجر مع إخوانه من تلمسان إلى مراکش، فحرمت زوجته وداره عن الفخ، إلا أن المذكورين أخذوا ابنتيهما كرها على الخليفة¹ عام 553هـ/1158م،

سار الخليفة في جيش من الموحدين وقبائل العرب وزناتة والأغزاز والرماة، إلى أرض الزاب وبلاد إفريقية، حتى وصل مدينة تونس والقيروان وفتح سوسة وصفاقس، ثم ارتحل إلى المهديّة²، وفي عام 548هـ/1153م ثار أهل هرغة وتينملل فواقع بهم الخليفة³. وارتدت جزولة بقيادة بكر بن عمر (ت 550هـ/1155م)، وظهر ثائر يسمى أمركال، فقال الخليفة لأبي حفص: قامت الناقاة بحملها يا أباحفص فقال له أيها الخليفة: نرقدتها⁴، وثار بها رجل يعرف بأبي مزكيدة⁵ بماسة في جمع من برغواطة وقبائل كثيرة من البربر، ومن هؤلاء دعاة الفتن الذين قاموا بالأندلس رجلا اسمه أحمد بن قسيّ ادعى الولاية والهداية، وكان صاحب حيل ومفوه بصنعة البيان⁶، قبض عليه الموحدون وقتله بعض أصحابه.

يبدو أن الفترة التي قضاها عبد المؤمن خارج بلاد المصامدة والمغرب الأقصى، جعلت العناصر المناوئة تتقوى لمناهضة حكم الزناتيين، بل ورفضوا دعوة الموحدين، وكاد يضمحل ما قاتلوا عليه في ظل حكم ابن تومرت، وأغلب تلك الانتفاضات انطلقت من بلاد السوس وأسبل دعائها على أنفسهم طابع المهديّة، وهم في ذلك معارضون للسلطة الموحدية الكومية الجديدة.

لم ينتظر هؤلاء الثائرون عودة أبا محمد إلى عاصمة ملكه، بل حاولوا اغتياله في خبائه وهو في طريقه من المهديّة إلى مراکش عام 555هـ/1160م، وتذكر الرواية أن رجلا من اصحاب ابن تومرت هو ابو إبراهيم اسماعيل بن يحيى الهزرجي، وجدوه صباحا مقتولا في خباء الخليفة، ويبدو ان خطة الإغتيال حبكت في مراکش من طرف أعيان هرغة، بدليل أن الخليفة عبد المؤمن لما دخل المدينة، بلغه أنهم قادحون في ملكه متربصون به، فقتل المتآمرين ومنهم جماعة من أعيان هرغة، وبهذا العمل هابه المصامدة وسائر أهل دولته وعظم أمره في صدورهم.

استطاع عبد المؤمن بفضل حنكته السياسية ومعرفته المباشرة بالقبائل المصمودية، أن يتجاوز مختلف الصعاب التي اعترضت مسيرته، وبذلك أسس لنفسه ولبنيه ملكا متراحي الأطراف، يحمل بصمة تومرتية لكن بعزم وقوامة ونفس مؤمينة.

¹ - ابن عذاري، مصدر سابق، ، 30 / 5.

² - ابن أبي الزرع، مصدر سابق، ص 198.

³ - ابن تومرت، مصدر سابق، ص 76.

⁴ - نفسه، ص 77

⁵ - ابن عذاري، مصدر سابق، 192 / 5. ابن تومرت، مصدر سابق، ص 83.

⁶ - عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، ص 155.

المحاضرة السادسة

نظم الموحدين

أولاً: فترة الدعوة

أ- أهل الدار

ب- أهل الجماعة

ج- أهل الخمسين

د- الطلبة

هـ- الكافة

ثانياً: فترة الدولة

أ- إمرة المؤمنين

ب- الوزارة

ج- الكتابة

د- الولايات

هـ- القضاء

نظم الموحدين

شهدت فترة الدعوة الموحدية بقيادة المهدي محمد بن تومرت نظماً تهدف إلى هيكلة أتباع الدعوة في هيئات تضمن لها الاستمرار والانتشار، فضلاً عن تيسير تلقي عقيدة الموحدين وتسيير شؤونهم. وإذا نظرنا إلى هذه الترتيبات نجد أنها في الغالب ترتبط بالدعوات السرية، لذلك يبدو أن ابن تومرت قد اطلع بالمشرق على تلك الدعوات التي طاردها خلفاء بني أمية وبني العباس. ففيما تتمثل تلك الهيئات؟ وإلى أي مدى سايرت تطور الدولة؟

تحفل كتب الموحدين سيما المتقدمين منهم بذكر هيئات الموحدين ونظمهم، مثل كتاب الأنساب وكتاب نظم الجمان لابن القطان، وأخبار المهدي بن تومرت للبيدق، مع إشارات عند ابن صاحب الصلاة، وما ورد عند المؤرخين الآخرين لا يمثل سوى صدى لروايات المتقدمين.

لم يكن مبتغى ابن تومرت يريد أن يبقى مسعاه في حدود شخصه، بل أن يحدث الأثر الديني والسياسي في بلاد المغرب، لذلك عمل على إنشاء تلك الهيئات بالتدرج تماشياً مع اتساع دائرة الانضمام للموحدين، وعليه نعتقد أنها لم تنشأ في زمن واحد، فقد جاء في كتاب نظم الجمان أن طبقات الموحدين هم: أهل الجماعة، أهل الخمسين، أهل السبعين، الطلبة، الحفاظ " صغار الطلبة" أهل الدار، هرغة، أهل تملل، جدميوة، جنفيسة، هنتاتة، أهل القبائل، الغرات¹

أولاً: فترة الدعوة:

وهي الفترة التي قضاها ابن تومرت في الدعوة وتنظيم أتباعه والممتدة من 514هـ / 1120م إلى وفاته 524هـ / 1130م، وعرفت التنظيمات التالية:

أ- أهل الدار:

يروى ابن القطان عن ابن صاحب الصلاة، أن للمهدي: (رجال يخدمونه في داره، يسمون أهل الدار من أصحابه يختصون به في ليله ونهاره وهم المعروفون بأهل الدار)² وعددهم في رواية كتاب الأنساب عشرون رجلاً³، منهم عبد الواحد بن عمر وأبو محمد وسنار بن محمد وأبو محمد عبد العزيز وأبو موسى عيسى وعبد الكريم أفغو، يفهم من ذلك أن هذه الطبقة لم تكن لها دوراً اجتماعية أو دعوة أو سياسية.

¹ - ابن القطان، مصدر سابق، ص 82. الغرات هم: هم الأحداث الصغار الأميون. يورد المحقق عن صاحب الحلل الموشية، أن للموحدين ثلاثة عشرة طبقة لا أربع عشرة، كما ذكر ابن القطان في نظم الجمان.

² - البيدق، نظم الجمان، مصدر سابق، ص 86.

³ - البيدق، الأنساب، 25 وما بعدها

ب- أهل الجماعة:

يطلق على أهل الجماعة أهل العشرة، وفي رواية نظم الجمان يذكر سبعة رجال فقط، وفي الأنساب ذكر إثني عشر رجلاً¹، وسميت بالعشرة تيمناً بالعشرة المبشرين بالجنة، خاصة وان ابن تومرت كان يتأسى خطوات الرسول في مساره الدعوي.

في تقديرنا أن هذه الجماعة تكونت قبل أن يعلن ابن تومرت عن مهاديته، بحكم أننا لا نجد فيها أي فرد من قبيلة ابن تومرت هرغة المصمودية ورواية ابن القطان في نظم الجمان تؤكد ذلك، ولم يلتحق أبو حفص الهنتاتي بأهل الدار إلا بعد تأييد قبيلة هنتاتة لابن تومرت²، ومن ذلك نفهم أن هذه الجماعة مثلت تلك العناصر المرافقة له والتي تميزت بالعلم والقدرة القيادية وبالبدل والتضحية

أهل الجماعة كانوا بمثابة الوزراء، فهم أهل ثقة ومشورة المهدي في الأمور المصيرية³، وهذه الهيئة تولت تنفيذ قرارات المهدي، فقد تولى البشير وعبد المؤمن وعمر أصناج وموسى بن تمار القيادة العسكرية، وسليمان الحضرمي الكتابة وإساعيل الهزرجي القضاء وموسى بن تمار أمان الجماعة، ومود بن سليمان الإمامة في الفرائض عن إذن المهدي⁴.

ج- أهل الخمسين:

تكوين هذه الطبقة، جاء استجابة لحجم القبائل التي دخلت في طاعة ابن تومرت في مرحلة إنجليز ثم اكتملت في تملل، فهم يمثلون قبائل الموحدين الست (هرغة، كدميو، وكفيسة، هنتاتة، وهكسورة، وصنهاجة الجبل)، وفي هذا الإطار تتداخل الروايات بذكر أهل السبعين وأهل السبعة.

ينفرد اليسع بذكر أهل السبعين، وفي نظم الجمان بذكر السبعة في حين ابن القطان ينكر وجود أهل السبعين، إذ يقول معلقاً على رواية اليسع قائلاً: (وأما ما ذكره اليسع من أمر السبعين فلا أعرفه ولا أراه صحيحاً)⁵، ويورد ابن القطان أهل السبعة مباشرة بعد ذكره لأهل الخمسين، ويقول هم أهل مشورته⁶، نفهم من ذلك أنه كان لأهل الخمسين مجلساً مصغراً يتكون من سبعة أعضاء وليسوا هيئة مستقلة كما يتوهم البعض، ويؤكد ذلك قوله: ولعلمهم منتقون من الخمسين.

¹ - نفسه، ص 30

² - ابن القطان، مصدر سابق، ص 87

³ - نفس المصدر، ص 81.

⁴ - البيهقي، أخبار المهدي، ص 33.

⁵ - ابن القطان، مصدر سابق، ص 83 وما بعدها

⁶ - نفس المصدر، ص 84.

يمثل مجلس الخمسين القبائل المصمودية الموحدة¹، والقبائل من غير مصمودية قد يكون أفرادا منها بايعوا عبد المؤمن فأدخلهم في الهيئة، لأن ابن صاحب الصلاة يتحدث في روايته عن خمسة غرباء واحد من لمطة وثان من زناتة وآخر من جزولة.

إن نفي ابن القطان لأهل السبعين، يجعلنا نستنتج أن اجتماع هذه الهيئات من أهل الدار وأهل العشرة وأهل الخمسين، في جلسة واحدة، فمن الراجح أنهم كانوا يسمون اجتماعهم بأهل السبعين، لأن عددهم يقرب من السبعين، مع العلم أن العدد لم يكن قارا في كل الهيئات.

والواضح أن هذه الهيئة ليست مرتبطة بالعدد بالقدر ماهي مرتبطة بالمهام المنوطة بها لأن ابن القطان يتنبه لهذه القضية فيقول: (وهم على هذا زهاء أربعين أو واحد وأربعين فأين تمام الخمسين)².

شكل أهل الخمسين مجلسا للشورى حسب ابن القطان³ الذي قال: (واختص المذكورون بهذا الاختصاص وانعقد لهم من البر والتكرمة ما أنهضهم إلى أن تسمع بقية عوامهم منهم وتطيع، وكانوا إذا قطعوا الأمور العظام يخلون بالعشرة لا يحضر معهم غيرهم، فإذا أمر أهون أحضروا، فإذا جاء دون ذلك أحضروا السبعين رجلا، وفي ما دون ذلك لا يتأخر أحد ممن دخل في أمره)⁴.

د- الطلبة:

نشير إلى أن تنظيم الطلبة ظهر بعد وصول أهل الجماعة إلى إيجليز، ذلك ما نستشفه من الرواية التي تتضمن أن ابن تومرت قبل إعلان مهادته، أرسل رجالا إلى السوس ممن استصلح عقولهم لدعوة القبائل عام 516هـ، بقيادة نمير بن تجلد بن يملوك، كما لم تحدد لنا الروايات عددهم، لكنها تشير إلى أنهم كانوا في جماعة وافرة حينما نزلوا إلى السوس يدعون (إلى الحق الذي جاء به الإمام المهدي ... فاستجاب له من أهل تلك الجبال جملة منهم جدميوة الجبل وهزميرة الجبل وجنفيصة الجبل، ومن وفقه الله من أهل جبل درن)⁵، ولم تتأخر هنتاتة هي الأخرى (لما سمعوا بالإمام المهدي... وإخباره اجتمعوا... فتدأروا خبر الإمام المهدي... وما جاء به وما هو عليه من الخير والوعظ... رأوا أنها تنفعهم فتوجه إسحاق بن عمر والموحدون... في ثلاثة آلاف راجل وثلاثمائة فارس يقدمهم البشير)⁶.

لقد مر بنا أن المهدي كان له طلبة في كل مكان حل به، حيث كان يجلس للتدريس وإماتة المنكر وإحياء المعروف، ولما حل بمراكش كثر مريدوه خاصة بعد مناظراته لفقهاء المرابطين، ومواجهته لعلي بن

¹ - أما صنهجة وهسكورة لم يوحدا في حياة ابن تومرت

² - نفسه، ص 86.

³ - نفسه، ص 75

⁴ - ابن القطان، مصدر سابق، ص 128.

⁵ - نفس المصدر، ص 133.

⁶ - نفسه، ص 134

يوسف بن تاشفين، فأخذوا عنه وتلقوا على يديه "علم التوحيد"، كما شكلت الثلاث سنوات التي قضاها بجبل إيجليز يدرس ويبحث أفكاره، فضاءً لذيوع صيته وإقبال الطلبة عليه .

كان هؤلاء الطلبة بمثابة دعاة ورسول ابن تومرت، يروجون لفكره وعقيدته، ويدعون الناس إلى بيعته، ويزرعون محبته في قلوبهم بالثناء عليه، ويصفونه بالزهد والتحري وإظهار الكرامات، فقد وجدت هذه السيرة إقبالا لدى قبائل كدميوه وهزميرة وجنفيسة وهنتاتة¹، كما كانوا يشاركون في الحملات العسكرية، مثل جواز الخليفة عبد المؤمن مع طلبة أغمات على هيلانة، إذ يروي البيدق في معرض حديثه عن رجوع الجيش المنهزم من البحيرة بقيادة عبد المؤمن (وجاز الخليفة مع طلبة أغمات على هيلانة)². وقد لخص ابن الخطيب هذه الأدوار والمهام المتكاملة في قوله: (أهل الجماعة للتفاوض والمشورة.. وأهل خمسين، وسبعين، والحفاظ، والطلبة لحمل العلم والتلقي، وسائر القبائل لمداغة العدو)³.

هـ- الكافة:

حسب ابن القطان، أن عامة الموحدين لم يتركهم ابن تومرت بدون تنظيم، وإنما لم شملهم بحسب قبائلهم، وجعل على كل عشرة نقبا، وليتأكد من انضباطهم، كان يعرضهم للتمييز بين الفينة والفينة، وكان لكل صنف من أصناف الموحدين رتبة لا يتعداها في سفر أو حضر⁴.

ثانيا: فترة الدولة:

لقد طرأت تغييرات على التنظيم الذي أسسه ابن تومرت لدعوته، وهذا التغيير يتماشى والمفهوم الجديد لـ "التوحيد"، الذي وضعه الخليفة عبد المؤمن بعد خضوع مراكش لحكمه عام 541هـ / 1146م، إذ تطور التوحيد من الدين إلى السياسة، وأصبح كل من خضع لسلطة الموحدين يعتبر موحدا، وفي الرسالة التي بعثها إلى الأقاليم عام 543هـ / 1148م، يشرح فيها المفهوم الجديد، فقال للطلبة والأشياخ (ولتعلموا -رعاكم الله- أن من شملته كلمة التوحيد في العهد القريب أو البعيد، في مضار واحد من العدل محمولون، وإنكم عن كل من هناك مسؤولون، ولفظ الموحدون بيننا وبينهم جميعا)⁵.

هذا التغيير في المفهوم، رافقه تغيير في تقسيم وترتيب طبقات الموحدين، نظام يكرس فيه الولاء لشخصه وأسرته، وغير الطبقات على أساس معيار جديد، حيث اعتبرت معركة البحيرة فيصلا بين الطبقات:

¹ - ابن أبي الزرع، مصدر سابق ص 178.

² - ابن تومرت، مصدر سابق، ص 40.

³ - محمد علي الصلابي، مرجع سابق، ص 82.

⁴ - ابن القطان، مصدر سابق، ص 26

⁵ - نفسه، ص 166

الطبقة الأولى: السابقون الأولون، الذين بايعوا المهدي وصحبوه وغزوا معه وصلوا خلفه وأدركوا البحيرة واشتركوا فيها، ونعتقد أن هيئة أهل الجماعة وأهل الخمسين أدمجوا في هذه الطبقة الأولى. وهي تمثل أشياخ الموحيدين. وضم إليها قبيلته كومية، كما ظهر أشياخ العرب وأشياخ الأندلس

الطبقة الثانية: من دخل بعد البحيرة إلى فتح وهران عام 539هـ / 1144م

الطبقة الثالثة: من انتظم في سلك الموحيدين بعد ذلك¹

لكن هذه الطبقات لم تكن واضحة في النظام الإداري للدولة، وقد اتخذ ذلك عبد المؤمن لإبعاد المنافسين له على أساس فترة الولاء، ومن الواضح أن السابقون الأولون قتل الكثير منهم، وهم المستهدفون من هذا التصنيف، بينما الطبقات الواضحة في المراسلات والنظم نجد: السادة وهم أعضاء الأسرة الحاكمة (ظهرت في عهد يوسف بن عبد المؤمن)، يساعدهم في ولاياتهم الشيوخ والحفاظ وأهل الخمسين وأبناء الجماعة وأهل الدار وطلبة الحضر وطلبة الموحيدين، ومنهم تتكون مختلف الهيئات.

أ- إمرة المؤمنين:

كان ابن تومرت قبل إعلان المهدي يلقب بالإمام، ثم أصبح لقبه الإمام المعصوم والمهدي المعلوم، وبهذه الصيغة فطاعة الإمام واجبة وهو مفوض من قبل المولى تعالى للحكم، وإنفاذ الشريعة، وسلطته مطلقة لا يجدها إلا الكتاب والسنة. كما إن ابن تومرت لا يعترف إلا بخلافة الخلفاء الراشدين.

في عهد عبد المؤمن بدأت تبلور الخلافة، وهو بذلك خليفة للمهدي، كما تداول لقب أمير المؤمنين، وهو الذي لقبه به المهدي بن تومرت، ويرى البعض أنه اتخذ اللقب بعد البيعة العامة 524هـ، إلا أن سلطته في بداية حكمه كانت مقيدة من خلال مجلس الشورى الممثل في أهل الجماعة والخمسين. ولقد اتخذ بني عبد المؤمن عده ألقاب منها أمير المؤمنين والخليفة والإمام

وفي عام 549هـ / 1154م، أعلن عبد المؤمن، للملا من طبقات الموحيدين، والقبائل الداخلة في طاعتهم، من بني هلال وصنهاجة، توليته لأبنة (محمد) ولياً لعهد، وقامت تلك الجماعات في الحال بالموافقة على ذلك الأمر، وبايعت لولي العهد، وجعل الحكم وراثياً في أسرته، وبهذا الفعل ثارت حفيظة الكثيرين من الموحيدين، مما دفع بعضهم بالثورة عليه، ومن الطبيعي أن يكون أهل ابن تومرت الهرغيين، أول المعارضين لعبد المؤمن الزناتي.

ب- الوزارة:

عملياً لا يمكن الحديث عن الوزارة في عهد ابن تومرت، رغم أن ابن القطان قال: وزراؤه (العشرة المؤثرون الذين يقال لهم الجماعة)¹، بينما في عهد بناء الدولة كان أبو حفص عمر أصناج أول وزير عينه عبد

¹ - رسائل موحديّة ، العزاوي، ص ص 47 55

المؤمن²، ثم عهد إلى جعفر بن عطية الجمع بين وظيفتي الوزير والكاتب³ إلى أن قتله عبد المؤمن عام 555هـ/1160م، وكان عمر بن عبد المؤمن آخر وزير في حياة الخليفة، وأول وزراء أبي يوسف يعقوب هو أبو حفص عمر بن أبي زيد الهنتاتي، ثم وزر له أبو بكر بن أبي حفص عمر حتى مات⁴.

كان الوزراء إما من السادة بني عبد المؤمن أو من أشياخ الموحدين عدا أبو جعفر بن عطية فإنه استوز بسبب مؤهلاته، بينما لم يتقلدها السادة في عهد المنصور لأنهم يرونها دونهم (وزر له أخوه عمر أياما يسيرة، ثم ارتفع قدره عن الوزارة إذ رآها دونه)⁵.

كان الوزير في بداية عهد الدولة يمارس الكتابة والوزارة ثم اختص بالوزارة فقط، مع ما يسند للوزير من أعمال محددة في حال غياب الخليفة، مثل ما أسند للوزير أبي العلا إدريس مهمة الإشراف على أعمال البناء عندما كان الخليفة في إشبيلية عام 567هـ/1171م، وقد يحول إلى مهام لخطورتها مثل إدارة إقليم في حال حدوث ثورات، حيث أسند الناصر منصب ولاية إفريقية⁶ إلى الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن حفص لما عام 603هـ/1207م.

ج- الكتابة:

عند مراجعة ما كتب في عهد المهدي من رسائل، نجدها تختلف من حيث الشكل والمضمون عن الرسائل التي كتبت في عهد ابن تومرت، وقد قام كل من ليفي برونسسال والغزاوي بجمع وتحقيق هذه الرسائل، وهي في مجموعها تتميز بقوة بلاغتها.

فالرسائل التي دونت في عهد المهدي لم يشر فيها إلى الكاتب، التي قد يكون ابن تومرت كتبها بنفسه، أو أحد العشرة، كما أن المراسلتين اللتين كانتا في عهد عبد المؤمن قبل دخوله مراکش، لم يذكر لهما كاتباً⁷، وكان أول من استكتبه الخليفة عبد المؤمن هو الكاتب ابن عطية عام 541هـ/1146م. أما المنصور فقلدها لأبي القاسم المعروف بالقلمي، ثم لأبي الفضل جعفر بن أحمد من أهل بجاية⁸، وجل من تقلد هذه الخطة، كان ممن عرفوا بالبراعة الأدبية والخبرة الإدارية.

د- الولايات:

قبل إعلان الخليفة عبد المؤمن ولاية العهد لابنه، كانت الأقاليم التي خضعت للموحدين يعين عليها أحد الشياخ، أو يبقي على بعض الأمراء المرابطين اللذين دخلوا في طاعة الموحدين، سواء في بلاد المغرب أو

¹ - ابن القطان، مصدر سابق، ص 124.

² - نفسه، 208

³ - عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، ص 266.

⁴ - نفسه، ص 193

⁵ - نفسه، ص 180.

⁶ - الزركشي، تاريخ الدولتين، ط2 1966، ص 18،

⁷ - رسائل، الغزاوي، 1/50-53، 52-56

⁸ - عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، ص 180

الأندلس، مثل يحيى بن يغمور وفي بلاد المغرب أبقى على ابن مطروح واليا على طرابلس، وعين على المهدي أبا عبد الله محمد بن ترح الكومي، وعبد الحق بن علناس الكومي على سوسة.

شهدت مرحلة ما بعد 551هـ / 1156م، تعيين عبد المؤمن لأبنائه على الأقاليم مكان شيوخ الموحدين، مع إيقاعهم محل شورى لهم، وأرسل الطلبة والحفاظ كإداريين وقادة عسكريين، وكانت كل ولاية مقسمة إلى أقسام غالبا ما يحكمها أحد من الحفاظ من أبناء الأسيخ¹، أهمها في مرحلة إزدهار الدولة: سجلماسة، تارودانت، مكناسة، سلا، تونس، تلمسان، مليانة، قسنطينة، تونس، إشبيلية قرطبة غرناطة جيان سبتة. الجزر الثلاث.

يروى المؤرخون أن عبد المؤمن لما عزم على تقديم أبنائه للحكم تبنى منهجا "عجيبا" فقد استرضى شيوخ الموحدين من أصحاب ابن تومرت بتوليتهم على الأقاليم وبذلك أبعدهم عن مركز الحكم بمراكش، وفي ذات الوقت أخذ أولادهم وتركهم عنده يشتغلون في العلوم فلما تمهروا فيها استدعى آباءهم من الأقاليم بنية إيقاعهم عنده وفي المقابل عين أبنائهم مساعدين للسلادة أبنائه ولاية الأقاليم²، واستمرت هذه السياسة في تعيين الولاة، عدا بعض الاستثناءات سيما في عهد يعقوب المنصور، بسبب ما لقيه من أخيه أبو حفص عمر والي مرسية وعمه سليمان والي تادلا في بلاد صنهاجة من منافسة على الحكم.

كانت مهمة الوالي عسكرية أمنية بالدرجة الأولى، فضلا عن مهام أخرى كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنظر في الأشغال المصلحية والخزنية، وتنشيط الأعمال التجارية والعمرائية، وهو بدوره يخضعون لمراقبة من طرف الخلفاء، خاصة في فترة الازدهار إلا أنهم استبدوا بالأمر منذ خلافة المستنصر.

ه- القضاء:

عرفت خطة القضاء عند الموحدين منذ عهد المهدي فقد استعمل اسماعيل الهزرجي أحد أهل الجماعة يقضي بينهم عن إذن المهدي، ولما تولى عبد المؤمن الخلافة قلده خطة قضاء الجماعة لأبي عمران موسى³

يعين قاضي الجماعة من طرف الخليفة، بظواهر سلطانية وهذا ما تحتفظ به تقاديم القضاء، فعبد المؤمن عين محمد بن سالك العاملي كأول قاضي للموحدين بمالقة ويوسف بن عبد المؤمن استعمل عبد الله بن زغبوش بشاطبة وأبا الوليد بن رشد قضاء قرطبة واما المكارم المصري قضاء اشبيلية وابن صقر قضاء غرناطة،

¹ - ابن صاحب الصلاة، مصدر سابق، ص ص 392 396

² - ابن الأثير، مصدر سابق، 408/9.

³ - عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، ص 319.

قاضي الجماعة، هو المسؤول عن تعيين ومراقبة القضاة بالأقاليم والمسددين، وله الحق في اختيار من ينوب عنه، أو من يستكثبه¹، أو المسدد في القرية، وهو يحتل المرتبة الثانية بعد شيخ طلبة الحضر ينظر في المظالم وإقامة الحدود يتولى الخطبة والصلاة في المناسبات الكبرى

أما قضاة الأقاليم، فمن صلاحياتهم فض النزاعات وإقامة الحدود والنظر في المصالح العامة كالأوقاف وحفظ أموال اليتامى، تنفيذ الوصايا، تزويج الأيتام إذا لم يوجد الأولياء،

يستعين القاضي بالعدول أو الشهود، وكان أغلبهم من أهل تيممل أو بقضاة من الحفاظ، أو من الأندلس، فهم من يضبطون الشهادات والعقود وفق أحكام الشريعة، والذي يجب أن تتوفر فيه العدالة وسداد الحالة والتيقظ والنزاهة وذا علم وسليم الشهادة².

¹- رسائل، العزوي، 57/53/1، 58
²- نفس المصدر، 492، 483/1.

المحاضرة السابعة

السياسة المذهبية للدولة الموحدة"

أولاً: أسس السياسة المذهبية

ثانياً: الوسائل

السياسة المذهبية للدولة الموحدية

أولاً: أسس السياسة المذهبية:

منذ أن أعلن ابن تومرت دعوته، اتخذ من العلم وسيلة لإحياء "التوحيد" الإسلامي، وجعل التوحيد شعاراً لثورته، فسمى أصحابه بالموحدين، وعرفت دعوته بالدعوة الموحدية، رداً عما رآه من "انحراف" أهل المغرب عن التوحيد الصحيح، فهو يرى دائماً أن التوحيد هو الأساس الذي يبنى عليه الدين، وفروعه تثبت بعد ذلك.

إن التوحيد يعتبره ابن تومرت هو الأساس يبنى على (إثبات الواحد، ونفي ما سواه من إله أو شريك أو ولي أو طاغوت، كل ما يعبد سواه يجب نفيه والكفر به، والتبرؤ منه)¹، ونفي عن الخالق الشبيه والشريك والنقائص والآفات والحدود والجهات ولا تحلوه في مكان ولا في جهة².

من خلال إحدى الرسائل الموحدية التي وجهها المهدي إلى أتباعه سنة 521 هـ / 1127 م نلاحظ أن الموحدين وقفوا موقفاً عدائياً لفقهاء المذهب المالكي، لاتهامهم بالتلبيس والتدليس، فقد وصفهم المهدي (بأعوان الكفرة الملتئمين... من الطلبة... تسموا باسم العلم، ونسبوا أنفسهم إلى السنة، وتزينوا بالفقه وتعلقوا بالكفرة، وانحازوا إلى جنبيهم، واستفرغوا مجهودهم في معوتهم... وأعانوهم على باطلهم... ويقطعون الناس عن الحق ويردوهم عن الباطل... فلبسوا الناس بالزور والغرور، وظنوا أن الأمر كما قالوا، وحسبوا أن ذلك هو الحق... وقالوا لهم: طاعتهم لازمة والانتقاد إليهم واجب عليكم... فبغضوا إليهم أهل التوحيد وحذروهم من الرجوع إليهم وسلوك سبيلهم... ولبسوا عليهم بتبديل الكلام وتحريف القول بالزور والبهتان، وتقولوا علينا ما لم نقل تجنباً وتبغيضاً للحق عند العوام)³.

حتى يتمكن ابن تومرت من نشر وإقرار تعاليمه في نفوس أتباعه، قام بتأليف كتاب في التوحيد باللغتين العربية والبربرية المحلية، ونشره طلبته بين أهل السوس ليدرّسوا تعاليمه، وأمرهم بتعليم التوحيد بالبربرية لمن لا يعرف العربية⁴، فبالتوحيد الذي أقره ابن تومرت، وتثبيتته في النفوس يمكنه مواجهة المعارضين له.

ونقل عدد من العلماء أن ابن تومرت اشتهر بسفك الدماء، فيقول ابن تيمية عنه: (استحل دماء ألف مؤلفة من أهل المغرب المالكية، الذين كانوا من أهل الكتاب والسنة على مذهب مالك، وأهل المدينة يقرءون القرآن والحديث، والفقه على مذهب أهل المدينة، فزعم أنهم مشبهة مجسمة، ولم يكونوا من أهل هذه

¹ - نفسه.

² - عبد المجيد النجار، تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، الطبعة الثانية 1995، ص 91.

³ - ابن تومرت، المصدر نفسه، ص 263.

⁴ - ابن القطان، مصدر سابق، ص 168.

المقالة، ولا يعرف عن أحد من أصحاب مالك إظهار القول بالتشبيه والتجسيم . واستحل أيضا أموالهم وغير ذلك من المحرمات بهذا التأويل)¹.

عرف عهد عبد المؤمن تأكيدا على تعاليم المهدي، حيث أخذ الناس بعلم التوحيد والأمر بالمعرف والنهي عن المنكر، وبعث بذلك رسائله إلى الأقاليم، جاء فيها (وليكن جميع ما تأتونه وتذرونه في هذا المقصد وتؤخرونه جاريا على حكم الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، ففعله هو الذي نفتدي به، ونستمسك بسببه، ونضيه على وجهه، ونجربه على رسمه)²، ولن يتأت ذلك إلا بوجود قراءة عقيدة المهدي في كل دولته ومن طرف كل مكلف، وبعث بذلك إلى ولاته في الأصقاع يقول: (ويؤمر طلبة الحضر ومن في معناهم، ويلازموا قراءته ويتعهدوه ... ويلزم العامة ومن في الديار بقراءة العقيدة التي أولها "إعلم أرشدك الله وإياك"... واشمل في هذا الإلزام الرجال والنساء والأحرار والعبيد وكل من توجه عليه التكليف إذ لا يصح لهم عمل ولا يقبل منهم قول دون معرفة التوحيد)³، ومن لم يأخذ بهذا الأمر فهو لايتورع بإرافة دمه.

طلب ابن تومرت من الأجانب المستقرين في دولته الذين يقرؤون اللسان الغربي قراءة التوحيد بلسانهم (ويؤمر الذين يفهمون اللسان الغربي ويتكلمون به أن يقرؤوا التوحيد بذلك اللسان من أوله إلى آخره)، جاء في إحدى رسائل عبد المؤمن (أن من لم يؤمن بالله ولا برسله ولا بما جاءت به الرسل ولا بالإمام المهدي الذي قامت عليه البراهين واتضحت في أمره السبل، فهو متاد على كفره وتجسيه)⁴.

أدرك عبد المؤمن أن لا شعبية للمذهب وعدم فهم العامة لدقائقه، فحاول تجسيده بالدعوة إلى إصلاح المساجد والنهي عن المنكر وتحريق كتب الفروع⁵، كما أدخل تغييرات على المذهب، وهذا ما اشار إليه المؤرخون عندما ردوا جذور حركة الخليفة المنصور والمأمون إلى عبد المؤمن

ولأن الدولة لم يتم لها التمكين بعد، إضافة إلى تردي الأوضاع في الأندلس في بداية حكم عبد المؤمن لهذا سائر خليفة المهدي محافظا على المذهب التومرتي، ولم يستطع ابنه يسير على نفس الخطة القمعية للمهدي وعبد المؤمن، فخلعه شيوخ الموحدون بتواطؤ مع أخوية يوسف وعمر، وولوا مكانه أبا يعقوب ومنحوه سنتين قبل الاعتراف به، ليظهر فيها كفاءته وقدرته على حماية المذهب وشيوخ الموحدون، وظل الشيوخ محافظين على مكانتهم طيلة عهد يوسف الذي اشتغل بمواجهة النصارى بالأندلس حتى قتل في إحدى الجبهات

¹ ابن تيمية، مصدر سابق 476/11. وعن حكم ابن تومرت في المرابطين ينظر: ابن تومرت، أعز ما يطلب، ص 263

² كتاب الدولة المؤمنية، مجموع رسائل موحدية، اعتنى بإصدارها ليفي بروفنسال، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الرباط 1931. ص 51

³ كتاب الدولة المؤمنية، مجموع رسائل موحدية، اعتنى بإصدارها ليفي بروفنسال، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الرباط 1931، ص 132.

⁴ عبد المجيد النجار، مرجع سابق، ص 404.

⁵ عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، ص 185.

لما استقر عبد المؤمن بمراكش، أراد النظر في مصالح المسلمين وقوام أمر الموحدين، وكان رفع له أن المظالم قد ظهرت والقبالات في الأسواق اشتهرت، فكتب أبو جعفر بن عطية كتاباً إلى الطلبة والأشياخ والحفاظ يأمرهم فيه بالمعروف والنهي عن المنكر وعن سفك الدماء¹، وجه منها نسخاً إلى بلاد الأندلس والعدوة، جمعت هذه الرسالة قوانين العدل والفضل والسياسة والرياسة، ولما وصلت الرسالة إلى إشبيلية بحثوا عن هؤلاء وأرغموهم على الاعتراف، وهي الرسالة الجامعة لأنواع من الأوامر.

ومن جانب آخر حذر الطلبة من النظر في الفروع والمسائل وأمر بالعقاب الشديد لكل من نظر في شيء من الفروع والمسائل، مع حرق كتب الفروع في كامل دولته ليرد الناس إلى الأصول، وفي ذلك يقول ابن أبي زرع: (ثم دخلت خمسين وخمسةائة فيها أمر عبد المؤمن ... تغيير المنكر وتخريق كتب الفروع ورد الناس إلى قراءة الحديث وكتب بذلك إلى جميع طلبة المغرب والعدوة)²، وحذر أتباعه من النظر في "المدونة" للإمام سحنون (ت240هـ)، وليس ثمة كتاب يرجع إليه، إلا كتاب الله تعالى، وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم.

شهد عهد يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الملقب بالمنصور (580-595هـ / 1184-1199م) تحولات مذهبية عميقة مست التشكيك في عقيدة مهدي الموحدين، وحتى ينجح في مشروعه الإصلاحية سعى أولاً إلى كسر سلطة شيوخ الموحدين عن طريق إعادة النظر في تنظيمات المهدي التي خولت لهم سلطات واسعة وكان ذلك من الأسباب التي دفعتهم إلى إثارة وتحريض أخويه أبا حفص عمر وابا يحيى وعمه سليمان بن عبد المؤمن، إلى أن ذلك لم يجد بسبب صرامته، وثانياً إعادة النظر في العقيدة التومرتية، والذي شجعه على ذلك:

- نشوة الانتصار في معركة الأرك
- التأييد الشعبي الذي حظي به بفعل الانتصار
- ما خلفه استنجاد صلاح الدين الأيوبي من الاعتزاز بالنفس والشعور بالقوة

إن نبذ المنصور الموحد المهدوية واعتبارها فكرة كاذبة، ولم يعتقد في عصمة إمام الموحدين، يعضدها الاطلاع الواسع للمنصور على مصنفات الحديث، حيث عرف عنه أنه كان يحفظ صحيح البخاري، سديد الملوكة، جمع الفلاسفة كابن طفيل كان أحفظ الناس للغة العربية وبعيد الهمة³، فقد أخبر أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مطرف المري المؤرخ عبد الواحد المراكشي بأن يعقوب المنصور قال له: (يا أبا العباس اشهد لي بين يدي الله عز وجل أنني لا أقول بالعصمة)⁴، وقال مغاضباً لأبي بكر بن هائى الجياني ومستهزئاً بتأليف ابن

¹- ابن عذاري، مصدر سابق، 37/5.

²- ابن أبي زرع: مصدر سابق، ص195

³- محمد علي الصلابي، دولة الموحدين، ص 140. دار البيارق للنشر عمان (ب- ت)

⁴- عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، ص 291-292.

تومت، عندما أخبره بأنه يقرأ تأليف المهدي، ما هكذا يقول الطالب، إنما حكمتك أن تقول قرأت كتاب الله وقرأت شيئاً من السنة¹.

ولعل تمكن الخليفة المنصور من العلوم الشرعية ووصوله إلى مرحلة الاجتهاد الفقهي، كان له دور فعال في تطور مذهب الموحدين، وجنوحها إلى المذهب الظاهري، وبهذا ضرب منهج التأويل المعتمد كأساس في عقيدة ابن تومرت، حيث يشير عبد الواحد المراكشي أن يوسف وعبد المؤمن الخليفة كانا يرغبان في حمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث، إلا أن الظروف لم تسعفها، وحينما تولى يعقوب المنصور عام 580هـ، أظهره كما يقره النويري: (كان يتمذهب بمذهب الظاهرية ولا يكتمه)²، كما أبطوا العمل القياس وألزموا الناس بالظاهر.

أمر الخليفة المنصور الجماعة من العلماء المحدثين بجمع الأحاديث من المصنفات العشرة في الصلاة وما يتعلق بها على نحو المجموعة التي جمعها ابن تومرت في الطهارة، فوجد صدى في أوساط العامة والخواص، حتى انتشر هذا المجموع في بلاد المغرب، وكان قصده في الجملة محو مذهب مالك، وإزالته من المغرب مرة واحدة، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث، والتشكيك في عقيدة المهدي بن تومرت، إلا أنه ترك الأمور على عاداتها في تعظيم هذه العقيدة، ويبدو أن خلفاء الدولة الموحدية اللاحقين عدا المأمون تبنا عقيدة المهدي وألزموا العمل بها ومقاومة المعارضين لها.

كان المبتغى من هذه السياسة المذهبية حمل الناس على الظاهر من الكتاب والسنة، حيث عمل على مطاردة علم الفروع وقام بحرق كتب الفروع في كل البلاد سنة 583هـ / 1187م، بعد أن يحى منها الحديث والقرآن في مدينة فاس، وفي ذلك يشير صاحب المعجب (لقد شهدت منها، وأنا يومئذ بفاس، يؤقى منها بالأحمال فتوضع ويطلق فيها النار)³ مثل مدونة سخنون وكتاب ابن يونس ونوادير ابن أبي زيد، وكتاب التهذيب للبرادعي، وواضحة ابن حبيب.

أما موقفهم من الفلسفة يبرز من خلال تجدد شكاوى بعض المعارضين لعلوم الفلسفة أو الحاسدين لابن رشد⁴، فكانت محنته بمحضر أعيان قرطبة وطرد من مجلس المنصور، وأمر كاتبه أبا عبد الله بن عياش بتوجيه رسالة إلى مختلف الولايات يأمر الناس بالتخلي عن علوم الفلسفة وإحراق كتبها وذلك سنة 593هـ / 1197م (وقد كان في سالف الدهر قوم خاضوا في بحور الأوهام، وأقر لهم عوامهم بشفوف عليهم في الأفهام، حيث لا داعي يدعوا إلا الحي القيوم ولا حاكم يفصل بين المشكوك فيه والمعلوم فخلدوا في العالم صحفاً مالها من حلاق، مسودة المعاني والأوراق بعدها من الشريعة بعد المشركين، وتباينها تباين الثقلين، يوهمون أن العقل

¹ - عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 291 292

² - شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: عبد المحي ترحيني، بيروت: دار الكتب العلمية ط 1، 2004، 185/24.

³ - عبد الواحد المراكشي، ص ص 291 292

⁴ - أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد قاضي الجماعة بقرطبة

ميزان والحق برهان، وهم يتشيعون في القضية الواحدة فرقا¹، وتنص أيضا الرسالة على نبذه ومن معه (نبذناهم في الله نبذ النواة ... ومن عثر له على كتاب من كتبهم فجزأوه النار ... ومتى عثر منهم على حجر في غلوائه عم عن استقامته واهتدائه، فليعاجل فيه بالنتيقيف والتعريف)²، أخرج وهو في حال سيئة، وكتبت عنه الكتب إلى مختلف البلاد بالتقدم إلى الناس في ترك هذه العلوم جملة واحدة وأمر بإحراق كتب الفلسفة كلها إلا ما كان من الطب والحساب، فشملت هذه الكتب البلاد وعمل بما جاء فيها.

إن فعل المنصور هذا وإن كان أعبط الفقهاء ونال ثقتهم، وثقة الطبقات الشعبية، إلا أنه وضع في نفس الوقت حدا لحالة التحرر الفكري التي أرسى يوادرها ابن تومرت، فتم الرجوع إلى الانغلاق الفكري وصد باب الاجتهاد وفسح المجال للأولياء والصوفية مثل دعوته لأبي مدين التلمساني، ومحاوله اتصاله بأبي العباس السبتي.

الملاحظ أن المصادر المؤرخة للموحدين، تشير إلى نفس العبارة التي ترى أن التغيير الذي يحدثه أي خليفة موحد أن من قبله هم أن يفعله، وهذا في اعتقادنا من باب إعطاء الشرعية لهذا التغيير، كما أن ذم المهدي ومقولاته كان منمخما عند أحفاد عبد المؤمن. فهذا الخليفة المأمون قال: لقد هم سيدنا المنصور (أن يصدع بما به الآن صدعنا ... وإذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة فما الظن بمن لم يدر بأي يد يأخذ كتابه)³، وأمر بقطع ذكر إمامهم المهدي من الخطبة في جميع بلاده، ومحاسمه من المخاطبات ومن النقش في السكّة، وأمر بلعنه فوق المنابر، وقطع النداء بعد الصلاة.

رغم الانتكاسة التي عرفتها الدولة عقب معركة العقاب 609هـ / 1212م، وما تبعها من موت الناصر 610هـ / 1213م، وتولي بعده أبناءه الضعاف عبد الواحد والعاقل، فإنه مع تولي المأمون عام 624/1226م أصدر بيانا يوضح فيه سياسته المذهبية جاء فيه (ولتعلموا أنا نبذنا الباطل وأظهرنا الحق وان لا مهدي إلا عيسى بن مريم، وما سمي مهديا إلا أنه تكلم في المهدي فتلك بدعة قد أزلناها ... وقد أزلنا لفظ العصمة عمّن لا تثبت له عصمة ولذلك أزلنا عنه رسمه، فيمحي ويسقط ولا يثبت، وقد كان سيدنا المنصور هم أن يصدع بما به الآن صدعنا.. وإذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة.. اللهم أشهد)⁴.

اضطر الرشيد بن المأمون 630هـ / 1233م، للتراجع عن نهج والده المذهبي، تحت ضغط ما تبقى من شيوخ الموحدين مقابل مساندهم له، حيث أمر ب (إعادة ذكر اسم الإمام المهدي في الخطبة واسمه في المخاطبات ونقشه في السكّة ... وإعادة الدعاء بعد الصلاة والنداء عليها). لكن الملاحظ أن هذه المحاولة

¹ رسائل موحدية مجموعة جديدة، تحقيق ودراسة: أحمد العزاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالقيظيرة، الطبعة الأولى. 1/ 206.

² نفس المصدر. 207/1

³ ابن عذاري: مصدر سابق، 286/5، 287.

⁴ رسائل موحدية، العزاوي 385/1.

جاءت في وقت متأخر، لأن تعاليم المهدي لم يعد ذلك البريق، وأن نفوذ الشيوخ قد تراجع، فضلا عن ضعف الدولة وكثرت الثورات.

في ظل هذه الظروف استطاع المذهب المالكي إن يعود للواجهة ويستعيد مكانته بين الناس، بفضل ما تبقى من فقهاء المالكية ونسخ كتب المالكية المحروقة من الأصول المحفوظة.

ثانيا: الوسائل:

➤ احتل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر درجة كبيرة عند المهدي بن تومرت، فقد كان محورا لحياته فكريا وعملا منذ شروعه في رحلة العودة إلى وطنه إلى آخر أيامه، وقد أدرجه في واجب سباه "القيام بأمر الله"، ومن أوضح الأمور القيام بأمر الله عند ابن تومرت مقاومة السلطان المستبد الجائر الذي يسلك في سبيل تغيير جوره درجات مترتبة من التعريف بمظاهر الجور والفساد إلى الوعظ والإرشاد إلى التخشين في القول إلى سل السيف وإشهار الحرب، وقد سلك هو نفسه هذه الدرجات المترتبة مع علي بن يوسف الذي لم يجد معه سبل القول في التغيير فانتقل إلى سبيل الفعل وعمد إلى التغيير والقهر وسل السيف¹.

➤ نشر تآليف المهدي خاصة كتابه "أعز ما يطلب" ومطالبة أتباعه بالتقيد به ففيه (الملاذ والمعاد وعليه الاعتماد والاستناد وإليه المرجع والمفرج.. فمن عانده أو خالفه...فقد حاق به الردى).

➤ التضييق على فقهاء المالكية حيث توعد المنصور كل من يشتغل بعلم الرأي بالعقوبة الشديدة، حتى انقطع علم الرأي، وخافه الفقهاء، فقد آذى بنو عبد المؤمن أبا الحسن بن زرقون (ت 621 هـ / 1224) الذي كان شيخ المالكية وألف في الفقه المالكي كتاب " تهذيب المسالك إلى تحصيل مذهب مالك"، وقد نكلت السلطة الموحدية به وأحرقت مكتبته²، كما نكلت بالفقيه أبي محمد بن عبد الكبير بن بغي والحاج أبي بكر محمد بن خلف التجيبي المتوفى سنة 593 هـ / 1196 م/ فسجنا الأول والثاني وحجز أموالها وعذبا عذابا شديدا، أما أبو محمد عبد الكريم فقد نجا من العقوبة، ولكن حصل على عفو الأمير مع ابن رشد³.

➤ نهب ممتلكات فقهاء المالكية، إذ بمجرد دخول عبد المؤمن مراکش استباح دماء وأموال أهلها، فضلا عن التغريب والإقامة الجبرية كما كان الأمر مع القاضي عياض، عبد المؤمن بن علي (وقد أمر أن من فعل ذلك بعد هذا اليوم، ونظر في شيء من الفروع والمسائل، عوقب العقاب الشديد، وفعل به كذا وكذا- وسكت، ورفع الأمير عبد المؤمن رأسه إليه وأشار عليه بالجلوس فجلس، وقال: سمعتم ما قال؟ فقال له الطلبة: نعم).

¹ - ابن تومرت، مصدر سابق، ص 278.

² - محمد المغراوي: العلماء والصلحاء والسلطة بالمغرب، ص 268

³ - سعد زغلول: تاريخ المغرب، 7/ 217

➤ حرق كتب الفروع ابن أبي الزرع (قال: لما دخلت سنة (550هـ / 1155م) أمر أمير المؤمنين عبد المؤمن بتحريق كتب الفروع) فضلا عن وكتاب ابن يونس الصقلي (ت451هـ) "الجامع"، و"نوادير" ابن أبي زيد القيرواني (ت386هـ / 996م) و"المختصر" لأبي سعيد البرادعي كان على قيد الحياة سنة (373هـ / 983م)، و"الواضحة" لابن حبيب السلمي (ت238هـ / 852م). ونتاج الأبيكار لابن أبي حمزة ألفه بعد 580هـ / 1184م. وغيرها من أمهات المذهب المالكي. واستمر الحرق إلى عهد المنصور الموحد حيث يقول المراكشي (لقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس، يؤتى منها بالأحمال فتوضع ويطلق فيها النار)¹.

➤ ألف الخليفة المنصور كتابا يلغي كتاب المهدي، جمع فيه من الكتب الصحاح ما يتعلق بأمور الدين وشمع الناس على حفظه بالمنح والأموال.

➤ الإلتزام بالكتاب والسنة والإجماع

¹ - ابن أبي الزرع، مصدر سابق، ص 354

المحاضرة الثامنة:

ترسيخ الحركة العلمية في الدولة الموحدية

أولاً: عوامل النهضة الفكرية في عصر الموحدين:

ج- الميراث المرابطي:

ح- التعليم المجاني والإجباري:

أ- لإعتماد على الفتيان في تلقي "العلم":

د- التأليف بما يخدم عقيدة ابن تومرت:

أ- استدعاء العلماء إلى حاضرة الموحدين:

هـ- تأسيس المدارس والمعاهد:

ز- تكريم العلم وأهله:

ح- لاهتمام بتعليم أبناء الخلفاء

ط- انتشار الأمن:

و- الثروة المادية:

ثانياً: مظاهر الحركة العلمية والفكرية

أ- المجال العمراني:

ب- مجال التأليف والمكتبات:

ج- التفسير والحديث:

د- الفقه

ب- اللسانيات

ط- التاريخ والجغرافيا:

ي- الفلسفة:

ك- الطب والصيدلة:

م- اللغة والأدب:

ترسيخ الحركة العلمية في الدولة الموحدية

إن منطلق المشروع الموحدى أسس على طلب العلم، فالأب الروحي للدولة الموحدية ابن تومرت كان " عالما متبحرا" ويسعى لنشر العلم الشرعي في إطار مشروعه، ويؤكد ذلك ما ورد في كتابه "أعز ما يطلب" الذي استهله بقوله: "أعز ما يطلب وأفضل ما يكسب وأنفس ما يدخر وأحسن ما يعمل، العلم الذي جعله الله سبب الهداية إلى كل ما هو خير".

أولاً: عوامل النهضة الفكرية في عصر الموحدين:

أ- الميراث المرابطي:

على الرغم مما نشر من طرف بعض المؤرخين والمستشرقين عن الجانب الفكري في الدولة المرابطية، من تسويد للوضع ونعت عهدهم بالريخ اللامخ الذي قضى على كل أخضر، فإن هذه التوجهات تبررها في تقديري مختلف النصوص التاريخية التي دونت خلال العصر الموحدى وما يليه، والإنجازات العسكرية والسياسية للمرابطين خاصة في الأندلس.

خلافاً لذلك نجد عند بعض الروايات، ورغم قلتها تعطي مؤشرات إيجابية عن حقيقة الحياة العلمية عند المرابطين والتي استثمر فيها الموحدين بعد ذلك. فهذا يوسف بن تاشفين، ومع تضاعف التحديات التي شهدتها عهده سواء في المجال المغاربي أو الأندلس فضلاً عن عزمه على بناء الدولة، نجده حسب عبد الواحد المراكشي يولي عناية خاصة لأهل العلم ويدعوهم لحضرته فانقطع إليه (من الجزيرة من أهل كل علم فحوله، حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار)¹. واستمر هذا الاستقطاب لأعيان الفنون حيث (لم يزل أمير المسلمين -علي بن تاشفين- من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس وصرف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك، وأن المرابطين لم يكونوا يولون في عملهم إلا الفقهاء)². وفي ذلك بيان لتطور الحياة العلمية عند المرابطين وفق ما يفرضه عصرهم، وما التواصل والقبول الذي وجده ابن تومرت في حواضر المرابطين إلا دليلاً على رغبة السكان الاستزادة في طلب العلم.

ب- التعليم المجاني والإجباري:

إن مستقبل الدولة الموحدية في نظر الخليفة عبد المؤمن يتمثل في تكوين نخبة من الطلاب، يكون على عاتقها ترسيخ والاحتفاظ بعقيدة ابن تومرت، كما وضع الخليفة أبو يعقوب نظام تعليمي يقوم على واجب تعلم الضروري من العقائد بالنسبة لكل "موحد" من الرجال والنساء، الأحرار والعبيد. ونبت تعليم "علم الفروع" وحرقت كتبه، ففي أيامه انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء، وأمر بإحراق كتبه كمدونة سخون وكتاب ابن يونس ونواذر أبي زيد ومختصره وكتاب التهذيب للبرادعي وواضحة ابن حبيب³.

¹- عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، ص 123.

²- نفس المصدر، ص 132.

³- نفسه، ص 202 203.

ج- الإعتقاد على الفتيان في تلقي "العلم":

تطبيقاً لسياسته الرامية إلى تكوين طبقة حاملة لتعاليم الموحدين، كتب الخليفة عبد المؤمن إلى عماله بالأقاليم إلى ضرورة اختيار طلبة أمناء وان يكونوا يراقبون ويحافظون ولا يراعون في حقوق الله ولا يدهنون، وربى (الحفاظ - صغار الطلبة- على حفظ كتاب الموطأ وهو كتاب أعز ما يطلب، وغير ذلك من تأليف المهدي، وكان يدخلهم في كل يوم جمعة بعد الصلاة داخل القصر، فيجتمع الحفاظ فيه وهم نحو ثلاثة آلاف كأنهم ابناء ليلة من المصامدة وغيرهم، قصد بهم سرعة الحفظ والتربية على ما يريد فيأخذهم يوماً بتعليم الركوب ويوما بالرمي بالقوس ويوما بالعموم في بحيرة صنعها خاج بستانة مربعة ... ويوما يأخذهم بأن يجذقوا على قوراب وخوازيق صنعها لهم في تلك البحيرة فتأدبوا بهذه الآداب تارة بالعطاء وتارة بالأدب)¹.

كنتيجة لحرص خلفاء الموحدين على تنشئة هذه الطبقة بشكل جيد، أنشأ المنصور الموحد بيتاً للطلبة النابغين يشرف عليه بنفسه، مما جعل بعض الشيوخ يحسدون هؤلاء الطلبة على ما حظوا به من عناية، ففزع المنصور منهم وخاطبهم قائلاً: (يا معشر الموحدين أتم قبائل، فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيلته، وهؤلاء الطلبة لا قبيلة لهم إلا أنا فهما ناهيهم من أمر فأنا ملجأهم، وإلي فرعهم وإلي ينسبوا)² وبذلك بالغ الموحدون في برهم وإكرامهم.

د- التأليف بما يخدم عقيدة ابن تومرت:

تنبه ابن تومرت منذ بداية دعوته إلى ضرورة التأليف في عقيدته سواء باللسان العربي أو البربري، مثل كتابي التوحيد والمرشدة، وأمر الخليفة عبد المؤمن بجمع أحاديث الصلاة من المصنفات العشر على نحو الأحاديث التي جمعها ابن تومرت في الطهارة، وانتشر ذلك المجموع بين الناس جعل لكل من حفظه الجعل السنني من "الكساء" والأموال، فحفظه العوام والخواص، ويجرد البحاثة المنوني أغلب الكتب التي كانت تدرس خلال العهد الموحد، حيث قال: (هذه الكتب التي أمكنني الآن استخراجها من المصادر المشار لها تصريحاً في الأكثر وتلويحاً في الأقل)³، وكان الخليفة أبي يعقوب يوسف، يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب، ويبحث عن العلماء، وخاصة أهل علم النظر، إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع للملك قبله ممن ملك بلاد المغرب.

ه- استدعاء العلماء إلى حاضرة الموحدين:

مع اتساع الدولة الموحدية منذ عهد الخليفة عبد المؤمن سعى إلى استقطاب صاحب كل فن إلى جواره، ففي 585هـ/ 1189م استدعى يعقوب المنصور العلماء ورواة الحديث وأمرهم بتدريس الحديث، كما ساهمت الظروف السياسية بالأندلس إلى هجرة بعض الأندلسيين إلى بلاد المغرب سيما تلمسان، بسبب سيطرة النصارى على مدنهم مثل ألمرية 542هـ/ 1147م وطرطوشة 543هـ/ 1148م، وعبد الحق الإشبيلي

¹- نفس المصدر، ص 150

²- نفسه، ص 204.

³- المنوني، مرجع سابق، ص 22 23

(ت 581هـ / 1185م) الذي رحل إلى بجاية. حتى أن صاحب المعجب يقول أنه: اجتمع في فاس علم القيروان وعلم قرطبة¹، وهذه السياسة استدعت حرية تنقل أهل العلم، مثل عبد السلام التونسي (ت 589هـ / 1193م) التونسي اصلا، انتقل إلى أغمات صحبة عمه عبد العزيز، ثم عاد إلى تلمسان أين توفي ودفن إلى جوار الشيخ أبي مدين شعيب بالعباد².

و- تأسيس المدارس والمعاهد:

أسس الموحدون في عدد من الحواضر، مثل مراكش العاصمة وفاس ومكناسة ووهران وتلمسان وبجاية وجزائر بني مزغنة والقلعة ووركلان والمهدية والقيروان، فضلا عن مراكز أندلسية مثل قرطبة واشبيلية وغرناطة وكان الغرض منها (تخريج الجند البارعين... بيد أن العناية في هذه المؤسسات لم تكن تقتصر على... فنون الحرب... بل كانت تشمل تثقيف العقول... ثم كانت تنشأ معاهد خاصة بالعلماء)³. شهدت هذه المؤسسات نزول وفودا علمية من كبار علماء بلاد المغرب الأندلس، عقدوا فيها المناظرات وجمعوا المجامع العلمية وأسسوا خزائن للكتب.

ز- تكريم العلم وأهله:

حظي أهل العلم بتكريمات وعطايا من خلفاء الموحدين ممثلة في مرتبات وجوائز وصلات وخلع ومراكب وإقطاعات وتنويهات وولايات⁴، فقد أعطى عبد المؤمن للشاعر ابن منقذ رسول صلاح الدين الأيوبي ألف دينار لكل بيت، لما مدحه بقصيدة تشمل أربعين بيتا عام 588هـ، جاء فيها:

سأشكر بحرا ذا عباب قطعته
إلى بحر جود ما لآخره ساحل
إلى معدن التقوى إلى كعبة الندى
إلى من سمت بالذكر منه الأوائل
إليك أمير المؤمنين ولم تزل
إلى بابك المأمول تزجي الرواحل⁵

وأجرى يعقوب المرتبات على العلماء والطلبة على قدر مراتبهم وطبقاتهم، وكذا للأطباء والمهندسين والكتّاب والشعراء.

ح- الاهتمام بتعليم أبناء الخلفاء:

كان بنو عبد المؤمن كلهم فقهاء علماء، مثل الخليفة يوسف بن عبد المؤمن المتميز بـ (أحسن الناس ألفاظا بالقرآن الكريم، وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النحو وأحفظهم للغة العربية... هذا مع إثاره للعلم شديد، وتعطش مفرط له، صح عندي أنه كان يحفظ أحد الصحيحين .. وكان له مشاركة في علم

¹ - عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، 256.
² - أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، التشوف إلى رجال التصوف وإخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد توفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية 1997، ص 110.
³ - يوسف أشباح، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، القاهرة. الطبعة الثانية 1996، 525/2.
⁴ - المنوني، مرجع سابق، ص 14.
⁵ - أحمد بن محمد المقرئ، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، الناشر دار صادر، 1968، 445/1.

الأدب... ثم طمح به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة¹، كما حض الناس وبنه على العلم وحظ القرآن والحديث، واستدعى لذلك الأطفال من حواضر بلاد المغرب فـ (أقاموا كذلك تحت جراية واسعة وجباية بالغة... حتى بدا عليهم نور الإمامة وتميزوا بالحفظ وامتازوا بالكرامة)².

ط- انتشار الأمن:

شهدت أكثر فترات الدولة الأمن والاستقرار، حتى كانت الطعينة تخرج من بلاد نول لمطة، وتنتهي إلى برقة وحدها لا ترى من يعرض لها ولا من يكلمها³.

ي- الثروة المادية:

في سنة 554هـ فتح عبد المؤمن جميع بلاد إفريقية من برقة إلى تلمسان، ففرق فيها عماله وأمر بتكسير بلاد إفريقية والمغرب بالفراخ والأميال طولاً وعرضاً، فأسقط من التكسير الثلث في الجبال والشعراء والأنهار والسبخ والطرقات، وما بقي قسط عليه الخراج فهو أول من أحدث ذلك بالمغرب⁴، ولا شك أن موارد هذه الأصقاع وظف بعضها في ازدهار الحياة العلمية بالدولة.

ثانياً: مظاهر الحركة العلمية والفكرية

أ- المجال العمراني:

عمد عبد المؤمن إلى إنشاء المدارس الخاصة بتكوين طليعة الموحدين⁵ مثل المدرسة العامة لتخريج الموظفين ومدرسة تعليم السادة أحفاد عبد المؤمن ومدرس لتعليم فن الملاحة، والخليفة يعقوب المنصور أسس مدارس في المدن الكبرى ببلاد المغرب منها مدرسة خارج مراكش ومدرسة المسجد الأعظم والتي كان يشرف عليها الإمام أبي العباس السبتي.

كما اهتم الموحدون ببناء المساجد وإصلاحها منذ عهد ابن تومرت الذي أقام بمسجد الريحانة ببجاية وبنى مسجداً في تملل، وأصلح مساجد المناطق التي حل بها، كما قام بإصلاح مساجد تاجرا، والجامع الكبير بتلمسان وندرومة ومسجد درب الموحدين⁶ وكان الشيخ أبي مدين شعيب (594هـ/1197م) يقيم مجالسه بمسجد أبي زكرياء الزواوي والشيخ أبي علي حسن المسيلي يأتي الجامع الأعظم للتهجد⁷

ب- مجال التأليف والمكتبات:

اهتم الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بالكتب والمكتبات، حيث استدعى ابن الصقر الأنصاري الغرناطي (ت 569هـ / 1147م) ليكون مشرفاً على الخزانة العالية واستنسخ للمكتبة عدة

1- عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق ص 175.

2- ابن القطان، مصدر سابق، ص 179.

3- ابن أبي الزرع، مصدر سابق، ص 217.

4- نفس المصدر، ص 199.

5- المنوني، مرجع سابق، ص 17.

6- الغبريني أبو العباس أحمد، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الثانية، 1981. ص 165

7- الغبريني، نفس المصدر، 67

مجلدات¹، وفي أيامه كان تجمع الكتب من الخزانات الخاصة كخزانة أبي محمد عبد الملك التي أمر أمير المؤمنين أن يؤتى بها (فأرسل إلى داري وأنا في الديوان ... وكان الذي أرسل كافور الخصي مع جماعة من العبيد الخاصة وأمره ألا يروع أحدا من أهل الدار، وألا يأخذ سوى الكتب... وولوه بعد أخذهم لهذه الكتب منه ولاية ضخمة)²، ويخلص الباحث المنوني³ أن معاهد التعليم تتكون من الجوامع وكتاتيب ومدارس بما فيها عامة وملكية وبحرية، وبيت الطلبة الملحق بها.

ج- التفسير والحديث:

نجد أبا الحسن علي بن أحمد التجيبي المراكشي (ت 637هـ / 1240م) الذي أقرأ الفاتحة في حوالي ستة أشهر، له كتاب "مفتاح اللب المقفل على فهم القرآن المنزل"⁴، وأبا عبد الله محمد بن يوسف بن عمران المزدغي (ت 655هـ / 1257م) له كتاب في التفسير انتهى فيه إلى سورة الفتح، ولم ير عبد الواحد المراكشي كالأمر إبراهيم بن يوسف عالما متفردا وناقلا لعلم الأثر⁵، ومن حفاظ الحديث اشتهر أبو الخطاب بن دحية بحفظ صحيح مسلم.

د- الفقه:

ازدهر زمن الموحدين مذهب ابن تومرت والمذهب الظاهري والمالكي، فمن الفقهاء الظاهريين نجد أبو الحسن علي بن محمد الأندلسي (ت 605هـ / 1208م) وابن الكباد (ت 633هـ / 1236م)، وألف ابن القطان كتابا في بيان الوهم والإيهام والواقعين في كتاب الأحكام، أما المذهب المالكي فقد ألف فيه ابن زرقون (621هـ) "المعلي في الرد على المحلى والمجلى لابن حزم" ورد أبو يحيى المواق على ابن حزم الظاهري في مسائل كثيرة.

هـ- اللسانيات:

ظهر لغويون حفاظ منهم أبو الخطاب بن دحية، وأبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولي (ت 607هـ / 1210م) له مقدمة في الإملاء "المقدمة الجزولية"، وأبو عبد الله محمد بن العابد الأنصاري الفاسي له مختصر الكشاف للزمخشري وغيرهم كثير.

و- التاريخ والجغرافيا:

نجد ابن القطان وكتابه "نظم الجمان" والبيدق الذي ألف كتابي "الأنساب في معرفة الأصحاب"، و في كتاب "أخبار المهدي بن تومرت"، وابن فرتون في "ذيل الصلة"، واختصار المدارك لأبي عبد الله بن حماد

¹ - المراكشي ابن عبد الملك، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق: محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت، ب ت 228/1.

² - عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، ص 176.

³ - المنوني، مرجع سابق، ص 17.

⁴ - الغبريني، مصدر سابق، ص ص 85 86.

⁵ - عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، 207.

السبتي وعبد الواحد المراكشي (ت 625هـ / 1228م) "المعجب" وابن صاحب الصلاة في "المن بالإمامة" ونزهة المشتاق للإدرسي (ت 562هـ / 1167م)

هـ- الفلسفة:

كان عهد يوسف بن عبد المؤمن عهد الفلسفة بامتياز، فقد جمع كتبها وجمع إليه علماءها مثل ابن طفيل صاحب كتاب حي بن يقظان، ورسالة في النفس، وأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد، وقد لخص في عهده كتاب الطبيعة لأرسطو.

و- الطب والصيدلة:

كان للخليفة يوسف الموحي اهتمام بعلم الطب، ومن الأطباء أبو الحسن علي بن يقظان، والطبيب سعيد الغماري وألف الشريف الإدريسي كتابا "الجامع لصفات أشتات النبات" ويفهم من الرواية الواردة¹ في كتاب طبقات الأطباء عن الوليد بن زهر المنهج الذي ينبغي أن يسير عليه طالب الصنعة سيما في الطب أن يشتغلوا بالصنعة، ثم أن يجيد حفظ القرآن وأن يشتغل بقراءة التفاسير والحديث والفقهاء، مع مراعاة الأمور الشرعية والاقتداء بها، ثم الإطلاع على كتب المنطق

ز- اللغة والأدب:

المطلع على كتاب "المن بالإمامة" يجد ديوانا من الشعر السياسي الناطق بالاتجاه الفكري والعقدي للموحدين، شارك فيه كل من ابن حبوس وابن سيد المالقي وأبي العباس اللص والشاعر الطليق وابن حربون والمواعيني وابن طفيل وابن الحكم البلنسي وغيرهم قال القاضي أبو حفص بن عمر (ت 604هـ) يمدح المنصور الموحي²:

فؤاد بضياء العلم المنشرح	و وجهه بجمال النور موسوم
وكفه بطنها بالخير —	وظهرها لعود الله ملثوم
العلم قيمته والحلم شيمته	طابت أرومته والنفس والحيم
لطالبي العلم ما شاءوا بخدمته	غنى وعز وإرشاد وتعليم
سحب العلوم عليهم من سماحته	تهمي فهم في بحرهم هم شرع
العين من نظر والأذن في خبر	لا تشبعان وباغي العلم منهوم
ومن قوله ³	
أيا سامعي أمادح الإمام ألا	فاجثوا على الركب الأعظام أو قوموا

¹- طبقات الأطباء 69/2-70.

²- المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية ودولة الإمارات، تح: سعيد أحمد أعراب ومحمد بن تاروت وعبد السلام هراس، الرباط، (ب-ت)، 362/2.

³- نفس المصدر، 364/2.

لما سُمع هذا البيت، قام جميع من كان في المجلس، وكان فيهم الشاعر الملقب أبو العباس الجراوي فاحتج عليه.

وقوله: في مدح أبي يعقوب وهو يهنته ببيعته الثانية¹:

إلا هكذا تبني العلا والمآثر ————— وتسمو إلى الأمر الكبير الأكبر

نؤم لبيعات الرضا مطلع الهدى ————— وحيث الهدايا تعتلى والأوامر

من الدواوين التي ألفت خلال هذه الفترة ديوان أبي عبد الله بن حبوس، وأبي بكر عتيق بن علي الصنهاجي، ديوان أبي العباس الجراوي التادلي، كما تنوعت الكتابة من ديوانية إلى اجتماعية وسياسية وأدبية وإخوانية وتوقيعات.

¹ - نفسه، 365/2.

المحاضرة التاسعة:

تراجع الموحدين وتفكك دولتهم

أولاً: العوامل السياسية والعسكرية

أ- تصدع البيت المؤمني

ب- هزيمة حصن العقاب

ج- تسلط الوزراء على الخلفاء

د- الأطماع الانفصالية

هـ- كثرة الثورات والتمردات

و- الأطماع الانفصالية

ثانياً: العوامل المذهبية

ثالثاً: العوامل الاقتصادية

رابعاً: العوامل الاجتماعية

تراجع الموحدين وتفكك دولتهم

تمتعت الدولة الموحدية خلال فترة سيادتها على بلاد المغرب الاسلامي والأندلس بهيئة دينية وعسكرية، ساهم في بلورتها خلفاء أشداء وسادة أقوياء، وحسب مفهوم ابن خلدون إن المدنية والحضارة مؤذنة بالتزرف والركون إلى حياة الدعة، مما فسح المجال لتقوى جديدة صاعدة -دعاء جديدة- تبوءت مكانة متقدمة في السلطة المركزية والأقاليم، كان لها فصل الخطاب في مستقبل الدولة، ذلك حال "الإمبراطورية" الموحدية، التي لم يجد خلفاءها في آخر أيامها من يدعمهم من قادة إاطامع في السلطة أو مفسد منطو على خليفة أو أمير.

1- العوامل السياسية والعسكرية:

أ- تصدع البيت المؤمني:

تجلت مظاهر تصدع البيت الحاكم مند عهد الخليفة الرابع محمد الناصر ابن أبي يعقوب يوسف المنصور 595هـ-611هـ/1199-1215م، سيما بعدما أطلت هزيمة العقاب 609هـ/1212م، وإن ذهب المؤرخون شطط في رواية مقتله فصاحب المعجب، يرى أن سبب موته كان وربما في رأسه¹، بينما ابن أبي الزرع فيجعل السبب في انه مات مسموما بأمر من وزرائه لخوفهم على انتقامه منهم²، لكن ما يهمننا هنا هذا التوتر الذي أصبح يعيشه محيط العائلة الحاكمة.

وفي أيام أبي يعقوب المستنصر خامس خلفاء الموحدين تغيرت نفسية البيت الموحي وأشياخ حركتهم فكل واحد منهم عينه متجهة إلى عرش الخلافة، وقد ظهرت هذه المطامع بصورة خاصة عند بعض من بقي من أولاد يوسف يعقوب المنصور، وأولاد عمومتهم أولاد أبي حفص عمر بن عبد المؤمن.

لقد ابتلى البيت المؤمني بإثنين من أبناء يعقوب المنصور هما: أبو محمد عبد الله صاحب مرسية وأبو العلا إدريس صاحب قرطبة، فنض عبد الله وأنكر بيعة الموحدين في مراكش لعمه أبي محمد عبد الواحد 620هـ/1223م، ونادى بنفسه خليفة وتلقب بالعدل ودخل مراكش 622هـ/1225م، وكان هذا الأمر بتدبير وزيره ابن برجان الذي سارّه بقوله: (إياك أن تتابع عبد الواحد فإنك أحق بالخلافة وأقرب إليها منه، أنت ولد المنصور، وأخو الناصر، وعم المنتصر، ولك الحزم، والعقل والكرم، وحسن السياسة وإصابة الرأي، ولو دعوت الموحدين إلى بيعتك لم يختلف عليك إثنان)³، وبالفعل بايعه أشياخ الموحدين الذين هم بحضرة مراكش وعزلوا الخليفة عبد الواحد (و أشهد على نفسه بالخلع وبايع للعدل، ثم دخلوا عليه بعد مضي ثلاث عشرة ليلة من خلعه فخنقوه حتى مات)⁴ عام 621هـ وقد استقر الأمر لأبي محمد عبد الله العادل بجميع البلاد عدا إفريقية التي كان بها أبو حفص.

¹ - عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، ص 236

² - ابن أبي الزرع، مصدر سابق، ص 241.

³ - نفس المصدر، 244.

⁴ - الناصري، مرجع سابق، ص 206.

وما هي إلا شهورا حتى خلع ابن عمه عبد الله محمد بن أبي حفص "البياسي" طاعة العادل وأيس من عون الموحدين فانظم إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة.

ولم يطل الأمر للعادل بعد ذلك لأن خلافا شديدا نجم بينه وبين رجال دولته وقادته من الموحدين فقبضوا عليه ثم قتلوه 624هـ 1227م، في ذلك الوقت نادى أخوه أبو العلا إدريس بنفسه خليفة من إشبيلية وتلقب بالمأمون ولم يتمتع المأمون بالأمان إذ قام عليه المنافشون من كل ناحية وقضى سنوات حكمه القصيرة (5 سنوات و3 أشهر) في حروب ومنازعات

كما أن المأمون سلبته شهوة الحكم فاستنجد بالنصراني صاحب قشتالة لدخول مراكش، وقد شرط عليه هذا الأخير (أن يعطيه عشرة حصون ما يلي بلاده يختارها هو، وأن يبني بمراكش إذا دخلها لجيش النصاري الذين معه كنيسة بظهور بها دينهم... وأن من أسلم منهم لا يقبل منه إسلامه، ويرد إلى إخوانه فيحكمون فيه بأحكامهم إلى غير ذلك، فأسعهف المأمون في جميع ما طلب منه)¹، وما كان لصاحب قشتالة أن يحقق ما أراد لولا حالة لتصدع وعدم الثقة التي أضحى عليها أبناء عبد المؤمن.

ب- هزيمة حصن العقاب 609هـ/1212م:

بين معركة الأرك 591هـ ومعركة حصن العقاب 609هـ/1212م حوالي سبع عشرة سنة، وكان خلالها زرعت بذور التفكك والضعف، حيث شكلت هزيمة الموحدين على أسوار حصن العقاب ضربة قوية للدولة من جهة، وتقللا في الجبهة الاجتماعية من جهة أخرى، وقد أشار بعض المؤرخين إلى أن سبب الهزيمة يرجع إلى تأخر العطاء الذي كان يأخذه الجند كل أربعة اشهر، بينما الواضح من أن الآثار التي ترتبت على الهزيمة أن السبب أعمق من حصرها في هذه الجزئية، فالهزيمة تنبأ ببدء عام أصبح ينخر عضد الدولة في ظل غياب قيادة رشيدة وأقول "المبادئ" التي قاتل عليها الموحدون الأوائل، ولعل ذلك ما قصده عبد الواحد المراكشي في روايته من أن الجند خرجوا للمعركة (وهم كارهون... لم يسلوا سيفا ولا شرعوا رحا ولا أخذوا في شيء من أهبة القتال بل انهزموا لأول حملة الإفرنجة عليهم)².

واستمر الوهن الذي أصاب المسلمين في العقاب إلى معركة أبي دانس بالأندلس 614هـ/1217م، حيث (لم تجتمع العين بالعين إلا والمسلمون قد غامر قلوبهم الرعب، وولوا الأدبار وأخذوا في الفرار لما سبق لهم من الرعب من هزيمة العقاب لأن العدو كان قد تكالب وقوي وستأنس)³، وما تكالب العدو وقوته إلا من ضعف واستسلام لرغد العيش الذي أصاب المسلمين وقادتهم.

¹ - الناصري، مرجع سابق، ص ص 211 212.

² - عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، ص 65.

³ - ابن أبي الزرع، مصدر سابق، ص 242.

ج- تسلط الوزراء على الخلفاء:

إن تولى الحكم خلفاء صغار السن كان يصب في مصلحة أشياخ الموحدين، ولا نعدم القول في أنهم هم من كان وراء توليهم للاستئثار بالسلطة دونهم، وظهر هذا بشكل جلي قبيل معركة العقاب، فهذا ابن جامع منع ابن قادس صاحب حصن قلعة رباح وكان صاحب نجدة ومن معه من مقابلة أمير المسلمين الناصر بل قال لهم ابن جامع: (اعتزلوا جيش الموحدين فلا حاجة لنا بكم... وسننظر بعد هذه المقابلة في أمر كل فاجر)¹، لذلك تأمروا عليه ودبروا قتله بعد موقعة العقاب.

منذ ذلك التاريخ أصبحت كلمتهم هي العليا وهذا ما حدث مع عبد الواحد بن يوسف الذي بايعوه ثم خلعه وقتلوه، ولما تقموا على العادل كذلك خلعه ثم قتلوه²، لم تتوقف هذه الفئة عند هذا الحد وإنما استعانوا بفئات المجتمع من أجل تثبيت سلطتهم وهو الأمر الذي أفضى إلى انهيار السلطة وانقسام عميق داخل المجتمع.

د- الاطماع الانفصالية:

إن الوضع السياسي المتأزم أدى إلى استبداد الولاة بأقاليمهم وانفصالهم نهائياً عن مراكش، كما فعل عبد الله البياسي في قرطبة عام 623هـ، وأبو يعلى بن خلاص البلنسي في سبتة 640هـ / 1242م، ولم تكد تنتهي سنة 643هـ / 1245م حتى ضاقت رقعة الاسلام بالأندلس لدرجة لم يبق لهم سوى غرناطة وإشبيلية.

كما ظهرت إمارة الاستيلاء وتسلط الوزراء والعمال على الإدارة والحكم، ومن ذلك استبداد الوزير أبو سعيد بن جامع على دولة الناصر وإفساده لنية الجند في موقعة العقاب، وبلغت درجة تسلط الوزراء إلى درجة إبرام المعاهدات وعقد الاتفاقيات، بعد أن كانت من صلاحيات الخليفة وحده³، وفي ذلك يقول ابن عذاري (وكان المتولي على باطن يحيى والحاجب له والناظر عليه والكافل لأمواره والضابط لنفقاته والمرجوع إليه في مصالحه وداره وحرمة ومملكته فتى اسمه بلال يكنى أبي حماسة)⁴.

وفي بلاد المغرب ظهرت قوى إقليمية مثل الحفصيين بقيادة أبي زكرياء بن أبي محمد عبد الواحد الحفصي في إفريقية، وضم إليه تونس وبجاية وقسنطينة، كما عمل بنو عبد الواد للحصول على كيان سياسي مستقل بقيادة يغمراسن بن زيان بالمغرب الأوسط وتغلغت قبيلة بني مرين إلى جنوب المغرب الأقصى واستغلت توالي تهاوي السلطة الموحدية حتى تمكن عبد الحق بن محيو المريني من دخول مراكش والسيطرة عليها عام 668هـ / 1270م.

¹- ابن أبي الزرع، مصدر سابق، ص 238

²- المصدر نفسه، ص 241

³- ابن خلدون، ج6، ص 331.

⁴- ابن عذاري، مصدر سابق، 329 / 5

ه- كثرة الثورات والتمردات:

يعدد البيدق الثورات التي اندلعت ضد الموحدين بثلاث وثلاثين ثورة في بلاد المغرب¹ وبالأندلس بإثني عشر ثورة²، ومن أعنف الثورات التي هددت كيان الدولة الموحدية ثورة بني غانية، التي دامت حوالي خمسة عقود (580هـ-631هـ / 1184-1233م)، تركت خلفها خرابا ودمارا على مستوى العمران والاقتصاد وأثرت على المجتمع الموحي، وساهمت إلى حد بعيد في تفكك الدولة الموحي³، ومن الثورات التي عرفتها الأندلس مثل ثورة محمد بن مردنيش التي استمرت قرابة ربع قرن أدت إلى ضياع عدة مدن بشرق الأندلس مثل الألمرية وأفراغة وسرقسطة

ثانيا: العوامل المذهبية

يشكل العامل المذهبي الأسمت الذي وحد قبائل بلاد المغرب عموما، فكان الطعن في العقيدة التومرتية بداية نهاية الدولة الموحدية، لأن أية دولة تطعن في المبادئ التي شكلت بها السيادة محكوم عليها بالفناء، إن الطعن والإفلاس الذي حل بعقيدة ابن تومرت سواء ما يتعلق بعقيدة المهديوية والتي حشد لها الكثير من الأحاديث والنصوص لتبريرها، رغم أن الأحاديث الصحيحة واجتهادات العلماء تكذب ادعاءه، زيادة على اعتباره الإمامة أصلا من أصول الدين والتي لا يتم إيمان المرء إلا بها، وهو ما يتماشى مع معتقد أهل الشيعة، التي لم تجد لها موطأ قدم ببلاد المغرب، فضلا عن قوله بالعصمة وهو بذلك جمع بين المهدي المعلوم والإمام المعصوم وكفر الموحدون كل من لا يقول بمقولاتهم، جعل خلفاء الموحدين يقررون بإفلاس عقيدة ابن تومرت سيما غي عهد المأمون (لا تدعوه المهدي المعصوم وادعوه بالغي المذموم... لا مهدي إلا عيسى وأنه قد نبذنا أمره المذموم)⁴.

كما يظهر أن الانحراف لا زم منهج الموحدين سيما أسلوبهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي لامس منهج الخوارج، القائم على الثورة والخروج على السلطة واستحلال الدماء، كما راح يدعي ابن تومرت وخلفائه بالكرامات والخدع مثل تكليمه للموتى وحوادث التمييز، واستغلاله للتأويلات الباطنية كالجفر وخط الرمل.

ثالثا: العوامل الاقتصادية:

رغم ان الخلفاء الأوئل عملوا على توفير الظروف المناسبة للإزدهار الاقتصادي، إلا أن هذا الجهود تبدد خلال مرحلة انحلال الدولة، حيث توجهت القطاعات الاقتصادية المختلفة إلى خدمة الميدان الحربي، فقد وظفت الصناعة المعدنية في صناعة الأسلحة وصناعة النسيج للبنود والخلع والكسوات للجنود.

¹ - ابن القطان، مصدر سابق، ص 82 وما يليها

² - نفسه، 86 وما بعدها

³ - محمد علي أحمد قويدر، التجارة الداخلية في المغرب الأقصى في عصر الموحدين 541-668هـ / 1145-1269م، مكتبة الثقافة

الدينية (ب ت)، ص 12

⁴ - ابن عذاري، مصدر سابق، ص 287.

كما عرفت حركة البناء ركودا في فترة الضعف الموحدية، حيث اقتصر على بناء الحصون والقلاع والمعسكرات، وفي ميدان الجباية ذهب فريق من فقهاء الموحدين إلى إعطاء الحق للإمام في فرض المغارم والمكوس على رعاياه في حالة عجز بيت المال عن توفير الامكانيات الضرورية للدفاع عن مصالح المسلمين¹، سيما بعد موقعة العقاب بزيادة حجم المكوس وابتكار مغارم جديدة.

ساهمت الهجرات الهلالية في تأزم الوضع الاقتصادي خلال القرن السابع الهجري في بلاد المغرب، من دلائل ذلك ما أورده ابن عذاري عن العرب الخلط، كانت لا تتورع عن (الفتك بالأحرار الأبقار واسترقاق العبيد الأحرار فأمر شائع، وحكم واقع ماله من دافع عنهم ولا وازع)². فقد أفسدوا البلاد وقطعوا الطرق وامتحنوا اللصوصية ومارسوا أعمال النهب والسلب وخرّبوا الزرع وهدموا المساكن، مما أثر سلبا على حالة الأسواق والتجارة، وزاد من خطورة تلك الأوضاع أن تزامنت مع حالة الضعف العام والوهن الذي أصاب الدولة الموحدية.

رابعا: العوامل الاجتماعية:

رغم أن الدولة الموحدية قامت على قوة العصبية المصمودية، إلا أن المتبع يكشف مدى تحلل وضعف تلك العصبية، سيما مع أفول معالم الدعوة الدينية التي قوت في مرحلة من مراحل الدولة العصبية المصمودية. وأصبحت عاجزة عن نجدة الدولة المتهاكلة، ومن جهة أخرى أضحت غير قادرة على توفير الأمن والاستقرار للمصامدة

إن هذا التحلل يرجع في بعض أسبابه إلى تفرد الخلفاء والأشياخ والسادة والوزراء وعمال الدولة بوسائل الإدارة والتسيير وفق ما تمليه مصالحهم المتناقضة والخاصة، ويعتبر التخلي التدريجي على العقيدة التومرتية عاملا مهما في تصدع العصبية المصمودية ودخولها في صراعات الحاصلة بين الخلفاء وادعياء العرش، مثل هكسورة التي امتنعت عن مبايعة يحيى الناصر في حين سارعت هنتاتة وأهل تملل وكدميوة لمبايعته.

خامسا: تفشي مظاهر الترف والجوائح:

مثل انتشار شرب الخمر وانتشر شعر الخمر في أدب الموحدية واستشرائها في المجتمع الموحدية³، كما انتشرت ظواهر تبرز ميوعة المجتمع سيما ما تعلق بظاهرة عشق الغلمان ومجالس اللهو والغناء، ومما زاد الوضع سوء توالي الجوائح والأوبئة على المجتمع، ففي ظرف 37 سنة (614-651هـ) شهدت الدولة عشر مجاعات مثل مجاعة عام 610هـ/ 1213م، وانتشار القحط والجراد عام 617هـ/ 1220م، كما حل الوباء ببلاد المغرب سنوات 610 و630هـ/ 1233م و635هـ/ 1238م.

¹- الوثنريسي المعيار المغرب، دار الغرب الاسمي بيروت 1981، ص 32/5.

²- ابن عذاري، مصدر سابق، 310/5.

³- محمد المنوني، مرجع سابق، ص 97.

الملحق

الملحق رقم: 01

نص المناظرة عند ابن أبي الزرع

(فلما سمع ذلك أمير المسلمين علي بن يوسف من مقالته هابه وأطرق برأسه إلى وزرائه، فأمرهم بإحضار الفقهاء إلى مناظرته واختباره، فحضر فقهاء مراكش وطلبتها وأشياخ لتونة والمرابطين حتى امتلأ المجلس وغص بالناس، فعرفهم أمير المسلمين بأمر المهدي ومقالته، وقال لهم إنما بعثت لكم لتختبروا أمره، فإن كان عالماً اتبعناه، وإن كان جاهلاً أدبناه، فأكثروا الكلام، وأخذوا في الملام، وكان المهدي عالماً بالجدال فقال لهم: قدموا من تقوم به حججتكم، وتأدبوا بأدب أهل العلم، وسلموا عند شروط المناظرة، وتركوا اللجاج، وقدموا أحدكم ممن تتقون بمعرفته وتقدمه، وكان جل من حضر ذلك المجلس من الفقهاء أصحاب حديث وفروع، وليس فيهم من له معرفة بالأصول والجدل.

فكان أول ما سأهم عنه قال للذي تقدم للكلام: أيها الفقيه أنت لسان الجماعة المتقدم للكلام، فاخبرني هل تنحصر طرق العلم أم لا تنحصر؟ فأجابه: هي تنحصر في الكتاب والسنة والمعاني التي بنيت عليها، فقال له المهدي، إنما سألتك عن طرق العلم هل تنحصر أم لا؟ فلم تذكر إلا واحدة منها، ومن شرط الجواب أن يكون مطابقاً للسؤال، فلم يفهم مقالته وعجز عن الجواب، ثم سأله عن أصول الحق والباطل ما هي؟ فعاد جوابه الأول، فلما رأى عجزه وعجز أصحابه عن فهم السؤال وفحوا الخطاب ولم تكن لهم معرفة بالجواب وشرع لهم في تبين أصول الحق والباطل، فقال لهم: أما أصول الحق والباطل فهي أربعة: العلم والجهل والشك والظن، فالعلم أصل للهداية والشك والجهل والظن أصل للظلال، ثم أخذ في تبين طرق العلم فبهروهم بطريق أنوار العلم، وغلقت دونهم أبواب الفهم، وعجزوا عن جوابه، ولم يفهموا له خطابه... فلبسوا عليه وقالوا لأمر المسلمين علي بن يوسف: هذا رجل خارجي مسعور وأحمق صاحب جدل ولسان يضل جهال الناس، وإن بقي بالدنيا يفسد عقائد أهلها¹

1- ابن أبي الزرع، مصدر سابق، ص 175

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

المصادر:

- 1- أبوبكر بن العربي ، العواصم من القواصم، تحقيق عمار طالبي، الشركة التونسية للنشر والتوزيع، الجزائر 1974.
- 2- البيدق أبو بكر بن علي الصنهاجي ، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1971
- 3- _____ الأنساب في معرفة الأصحاب، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1971.
- 4- شمس الدين أبو عبد الله الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة 1985،
- 5- عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرحه واعتنى به د. صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية صيدا بيروت، ط1، 2006.
- 6- الونشريسي، المعيار المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، دار الغرب الاسلامي بيروت 1981
- 7- الزركشي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، الطبعة الثانية (ب ت)
- 8- ابن حبان محمد ، صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية 1993
- 9- ليفي بروفنسال، مجموع رسائل موحدية، اعتنى بإصدارها ليفي بروفنسال، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الرباط 1931،
- 10- ابن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الإسلام - مكتبة المعارف-الرباط، الطبعة الثانية 1401هـ.
- 11- المقرئ أحمد بن محمد ، فتح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، الناشر دار صادر، 1968.
- 12- _____ أزهار الرياض في أخبار عياض، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية ودولة الإمارات، تخ: سعيد أحمد أعراب ومحمد بن تاويت وعبد السلام هراس، الرباط ، (ب-ت)
- 13- ابن عبد الملك، الذيل والتكملة لكتابي الموصل والصلة، تحقيق: محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت، ب ت
- 14- ابن صاحب الصلاة، عبد الملك، المن بالإمامة على المستضعفين، تحقيق: عبد الهادي التازي، دار الغرب الاسلامي، الطبعة الثالثة 1987.
- 15- مجموعة رسائل جديدة، تحقيق ودراسة: أحمد عزاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالقيظرة، المغرب، الجزء الأول، الطبعة الأولى 1995.
- 16- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق الأساتذة: محمد إبراهيم الكتاني ، محمد زنيبر، محمد بن تاويت، عبد القادر زمانة، الجزء 04 و05، دار الغرب الاسلامي، بيروت، طبعة الأولى 1985.
- 17- ابن أبي الزرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، صور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972

- 18- ابن القطان أبو محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد المالك الكتامي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من اخبار الزمان، درسه وقدم له وحققه محمود علي مكّي، دار الغرب الاسلامي (ب ت)
- 19- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: عبد المجي ترحيني، بيروت: دار الكتب العلمية ط 1 2004
- 20- النادلي، أبو يعقوب يوسف بن يحيى ، التشوف إلى رجال التصوف واخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد توفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية 1997
- 21- ابن تومرت محمد، أعز ما يطلب، تقديم وتحقيق: عمار طالبي، صادر عن وزارة الثقافة، 2007.
- 22- الترمذي محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الجامع الكبير سنن الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الاسلامي، بيروت 1998.
- 23- الغبريني، أبو العباس أحمد، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق: راجح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الثانية، 1981
- 24- ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع 2000
- 25- _____ مقدمة العلامة ابن خلدون، دار الفكر، بيروت 2004،
- 26- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت (ب ت)

المراجع:

- 27- إبراهيم حسن سعيد، البحرية في عصر سلاطين الماليك، دار المعرف 1983..
- 28- أشباح يوسف ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، القاهرة. الطبعة الثانية 1996
- 29- هويثي أمبروسيو ميراندا، التاريخ السياسي للأمبراطورية الموحدية، ترجمة: عبد الواحد أكيم، منشورات الزمن الطبعة الثانية 2015.
- 30- ليفي بروفنسال، الاسلام في المغرب والأندلس، تر: محمود ومحمد صلاح الدين، مراجعة، لطفي عبد البديع، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية 1999
- 31- الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق: جعفري الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء 1954
- 32- الصلاحي محمد علي ، دولة الموحدين. دار البيارق للنشر عمان (ب-ت)
- 33- النجار عبد المجيد ، تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، فيرجينيا، الطبعة الثانية 1995.

المقالات والدوريات:

- 34- الجراي عباس ، الموحدون ثورة سياسية ومذهبية، مقال: مجلة المناهل العدد 01 ، نوفمبر 1974.

Leon Geley ; L'Espagne des goths et des Arabes , librairie léopold CERF , Paire , 1882 -35

فهرس المحاضرات

الفهرس

- 1- الدعوة "التومرتية" 2
- أولاً: مفهوم الدعوة..... 2
- ثانياً: ظروف الدعوة التومرتية..... 3
- ثالثاً: رحلة ابن تومرت: 5
- رابعاً: لقاء ابن تومرت بعبد المؤمن بن علي الكومي..... 10
- 2- فكري وعقيدة ابن تومرت 16
- أولاً: مكونات مذهب ابن تومرت 16
- 1- اعتقاد الإمامة..... 16
- 2- المهدوية 18
- 3- العقيدة الأشعرية 19
- 4- المذهب الخارجي 19
- 5- المذهب الظاهري 20
- 6- المذهب المعتزلي 22
- 3- ابن تومرت في مواجهة المرابطين..... 23
- أولاً: المواجهة الفكرية: 23
- أ- في اتجاه العامة: 23
- ب- في اتجاه السلطة: 24
- ثانياً: المواجهة العسكرية: 26
- 4- الرؤيا والمكائد المؤسسة للدولة الموحدية: 29
- أولاً: على عهد ابن تومرت: 29

- ثانيا: على عهد عبد المؤمن: 31
- 5- رجل الدولة عبد المؤمن بن علي الكومي..... 35
- أولا: نسبه ونشأته: 35
- ثانيا: الحاضنة التومرتية..... 36
- ثالثا: رجل الدولة: 37
- رابعا: استراتيجية عبد المؤمن لإنقاذ الموحدين..... 38
- أ- الاتجاه العسكري الاقليمي 38
- ب- تغيير التركيبة المجتمعية للبلاد 41
- ت- ج- ولاية العهد 43
- ث- د- مواجهة التمردات..... 44
- 6- نظم الموحدين 47
- أولا: فترة الدعوة 47
- أ- أهل الدار 47
- ب- أهل الجماعة..... 48
- ج- أهل الخمسين..... 48
- د- الطلبة..... 49
- هـ- الكافة 50
- ثانيا: فترة الدولة 50
- أ- إمرة المؤمنين..... 51
- ب- الوزارة..... 51
- ج- الكتابة..... 52
- د- الولايات..... 52
- هـ- القضاء..... 53
- 7- السياسة المذهبية للدولة الموحدية" 56

- أولاً: أسس السياسة المذهبية.....66
- ثانياً: الوسائل.....61
- 8- ترسيخ الحركة العلمية في الدولة الموحدية.....64
- أولاً: عوامل النهضة الفكرية في عصر الموحدين.....64
- أ- الميراث المرابطي.....64
- ب- التعليم المجاني والإجباري.....74
- ج- الإعتماد على الفتیان في تلقي "العلم".....65
- د- التأليف بما يخدم عقيدة ابن تومرت.....65
- هـ- استدعاء العلماء إلى حاضرة الموحدين.....65
- و- تأسيس المدارس والمعاهد.....66
- ز- تكريم العلم وأهله.....66
- ح- الاهتمام بتعليم أبناء الخلفاء.....66
- ط- انتشار الأمن.....67
- ي- الثروة المادية.....67
- ثانياً: مظاهر الحركة العلمية والفكرية.....67
- د- المجال العمراني.....67
- ذ- مجال التأليف والمكتبات.....67
- ر- التفسير والحديث.....68
- ز- الفقه.....68
- س- اللسانيات.....68
- ش- التاريخ والجغرافيا.....68
- ص- الفلسفة.....69
- ض- الطب والصيدلة.....69
- ط- اللغة والأدب.....69
- 9- تراجع الموحدين وتفكك دولتهم.....70

72.....	أولاً: العوامل السياسية والعسكرية.....
72.....	أ- تصدع البيت المؤمني.....
73.....	ب- هزيمة حصن العقاب.....
74.....	ج- تسلط الوزراء على الخلفاء.....
74.....	د- الأطماع الانفصالية.....
75.....	هـ- كثرة الثورات والتمردات.....
87.....	و- الأطماع الانفصالية.....
75.....	ثانياً: العوامل المذهبية.....
75.....	ثالثاً: العوامل الاقتصادية.....
76.....	رابعاً: العوامل الاجتماعية.....
76.....	خامساً: تفشي مظاهر الترف والجوائح.....
78.....	الملاحق.....
80.....	قائمة المصادر والمراجع.....



- 1- الدعوة "التومرتية"..... 2
- أولاً: مفهوم الدعوة..... 2
- ثانياً: ظروف الدعوة التومرتية..... 3
- ثالثاً: رحلة ابن تومرت:..... 5
- رابعاً: لقاء ابن تومرت بعبد المؤمن بن علي الكومي..... 10
- 2- فكرو عقيدة ابن تومرت..... 16
- أولاً: مكونات مذهب ابن تومرت..... 16
- 1- اعتقاد الإمامة..... 16
- 2- المهدوية..... 18
- 3- العقيدة الأشعرية..... 19
- 4- المذهب الخارجي..... 19
- 5- المذهب الظاهري..... 20
- 6- المذهب المعتزلي..... 22
- 3- ابن تومرت في مواجهة المرابطين..... 23
- أولاً: المواجهة الفكرية:..... 23
- أ- في اتجاه العامة:..... 23
- ب- في اتجاه السلطة:..... 24
- ثانياً: المواجهة العسكرية:..... 26
- 4- الرؤيا والمكائد المؤسسة للدولة الموحدية:..... 29
- أولاً: على عهد ابن تومرت:..... 29